

منتدى اقرأ الثقافي

www.iqra.ahlamontada.com

الغزو الفكر

وأثره في المجتمع الإسلامي المعاصر

الدكتور علي عبد الحليم محمود



یۆدابه‌زاندنی جۆرمها کتیب: سەردانی: (مُنْتَدَى إِقْرَأَ الثَّقَافِي)

لتحميل انواع الكتب راجع: (مُنْتَدَى إِقْرَأَ الثَّقَافِي)

پەڕەي دانلود کتایه‌های مَحْتَلَفَ مەراجعه: (منتدى اقرا الثقافى)

www.iqra.ahlamontada.com



www.iqra.ahlamontada.com

للكتيب (کوردی ، عربی ، فارسی)

الغزو والفكرى

وأثره فى المجتمع الإسلامى المعاصر

الدكتور على عبد الحليم محمود

الأستاذ بكلية اللغة العربية
بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
بالبهاض

جميع حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م

"افتتاح"

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على محمد إمام الأنبياء والمرسلين
وبعد :

فإن المرحلة التي يعيشها العالم الإسلامى اليوم من أشد المراحل دقةً
وتشابكا ، ومن أهمها فى تنوع أساليب الحرب التى تشن عليه ، وأعنى بهذه
المرحلة هذين القرنين الأخيرين من الزمان ، اللذين بلغ فيها أعداء الإسلام
غاية ما يحملون به من قوة ، وبلغ فيها العالم الإسلامى غاية ما يمكن أن يصل
إليه من تفكك وانقسام وفرقة وخصام .

وليس خافيا على من يتدبر ... أن وصول العالم الإسلامى إلى تلك الحال
إنما جاء نتيجة لوصول أعداء الإسلام إلى حالتهم تلك من التفوق فى مجالات
التقنية والقوة المادية ، بينما أهمل المسلمون الأخذ بأسباب التقدم العلمى ،
مهمومين بما يعانون من متاعب ، مصروفين عما يوجب عليهم دينهم من ضرورة
الأخذ بكل وسيلة تمكنهم من سيادة الأرض وإحقاق الحق وأطر الناس عليه
أطراً ، مصروفين عن كل ذلك بما دسّ لهم عدوهم فى حياتهم من سموم وبما
ساقهم فيه من تيارات جارفة اكتسحت أمامها كل قدرة على مقاومة تلك
التيارات .

لقد عاش العالم الإسلامى هذين القرنين يواجه من التحدى أشكالاً وفتوناً ... الغزو

الفكرى والإستشراق والتبشير والاستعمار فى شكل حماية أو وصاية أو انتداب . والاحتلال
لمسلح لكثير من بلدان هذا العالم الإسلامى .

ولقد كان فى دولة الخلافة العثمانية بريق من أمل فى أن تواجه هذا
التحدى وتقف منه وقفة جهاد فى سبيل الله يستقطب ملايين من المسلمين .
ولكن قوى التحدى ومؤسساته عملت بكل وسيلة لتقضى على هذا البريق من
الأمل ، فوجهت لدولة الخلافة أعتى ضرباتها فى الداخل حيث أغرقها فى
الديون وفى الخارج حيث تحالفت ضدها جيوش أوروبا أغلبها .

ولقد استطاعت قوى التحدى للعالم الإسلامى أن تصطنع من أنحاء العالم
الإسلامى من يقفون من دولة الخلافة العثمانية موقف العداء - فى قصة مؤسفة
يطول الحديث عنها وتحتاج إلى بحث مستقل - منخدعين بما أوهمهم به عدوهم
من قوميات ومذاهب سياسية واجتماعية واقتصادية وبما اغرقهم فيه من تيارات
تبعد بهم عن دينهم وتجرهم إلى حيث يريد لهم هؤلاء الأعداء .
فكان هذا الغزو للفكر الإسلامى وتلك التيارات المعادية للإسلام
والمسلمين .

وإن هذا الغزو الفكرى والتيارات المعادية للإسلام لمن الموضوعات التى
تشد اهتمام الواعين من أبناء الأمة الإسلامية ، وتحتاج من الباحثين والدارسين
إلى أن يبذلوا فيها من الجهد ما يكشف عن خباياها ويوضح أبعادها .

وما يحمد لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية أن تطرح الكتابة فى
هذا الموضوع على مستوى العلماء فى العالم الإسلامى فى مؤتمر الفقه
الإسلامى ، وهى إذ تحمد على هذا العمل الجليل إنما يذكر لها بالفخر أنها
تقوم بعمل كبير هو فى الأصل عمل كل جامعة إسلامية ، تعرف طريقها نحو
خدمة الفكر الإسلامى والعالم الإسلامى .

ولقد كان للإسلام فى الماضى جولة مع أعدائه أهل الباطل والضلال

وأصحاب الأهواء المتجبرين في الأرض ، ولقد حقق المسلمون انتصارات غير قليلة على هؤلاء وأولئك ومن ثم عادى الإسلام كل ضال وكل ذى هوى ، ووقف في وجه هديه ومنهجه كل طاغية وكل ظالم ، وقامت المعارك ضارية متعددة على مر التاريخ بين الإسلام وهؤلاء الأعداء .

ويخطئ من يظن أن الحرب بين الإسلام وأعدائه قد وضعت أوزارها ، ويكون أمن في الخطأ من يتصور أن أعداء الإسلام قد سكوا عنه بعد أن تحالفوا ضد أهله فغلبوهم وجعلوا منهم أنما بعد أن كانوا أمة ، وفرقا بعد أن كانوا وحدة ، إنما الحق أن أعداء الإسلام يديرون لحربه كل يوم وسيلة ، ويحشدون للوقوف في وجهه كل يوم قوة ، وليس خطر الكلمة والفكر بأقل من خطر الجندي والسلاح في المعركة الضارية التي يشنها أعداء الإسلام على الإسلام وأهله .

إنهم الآن قد سكوا عن حرب الجنود والأسلحة ، ليشنوا حرب التشويه والتخريب للإسلام منهجه وتاريخه ورجاله وتراثه ولغته وقرآنه ، وتحالفوا وتآزروا وابتكروا حديث الوسائل وخيبت التيارات والأساليب ، فزروا المسلمين في قلوبهم وأفكارهم وأخلاقهم وأزيائهم وشنوا على العالم الإسلامى من الغارات مالا يحصى أمره على كل ذى بصيرة ، ووقفت الصهيونية والتبشير والاستعمار والمبادئ والنظريات والفلسفات المعادية للإسلام يؤيد بعضها بعضا في حرب الإسلام والمسلمين ، ومن مجموع تلك الوسائل والأساليب كان الغزو الفكرى للمسلمين وكانت التيارات العارمة التي تحتاج أمامها جموعا كبيرة من المسلمين الذاهلين عن الحق المخدوعين بالعرض عن الجوهر . وكانت لنا في هذا البحث مواجهة مع هؤلاء الأعداء في مخططاتهم وأحلامهم .

وعلى الله قصد السبيل

د . على عبد الحليم محمود

أضواء على مفهوم الغزو الفكري

تكاد تكون كلمة « الغزو الفكري » من معطيات العصر الحديث الذي بُلى بأنواع عديدة من الغزو ؛ جاء بها الاستعمار مع ما جاء به لبلدان العالم الإسلامي بخاصة ، والعالم النامي بعامة - من متاعب وأضرار .

وإذا كان للكلمة مدلول مجازي واضح في اللغة فإن ذلك لا يعفينا من أن نلقى عليها أضواء تكشف عن حقيقتها ومجازها إذ يدخل في مفهومها تلك الأساليب العديدة الظاهرة حيناً ، والمقنعة بالبهارج والتهويل في كثير من الأحيان .

وإذا كان العالم المعاصر قد عرف الغزو العسكري من دولة قوية لأخرى ضعيفة وعانت الدول الضعيفة الولايات من هذا الغزو وقدمت التضحيات من أبنائها وخيراتها ونافحت من أجل حاضر مقتصب سيئ ، ومستقبل مهدد بما هو أسوأ . وإذا كانت البلدان الإسلامية - على وجه الخصوص - قد ذاقَت مرارة غزو اقتصادي وتجرعت به كأس الحرمان والتجويع والإرهاب ، ودفعت راضية أو كارهة من خيراتها ومقدراتها ما هي في ميسر الحاجة إليه ، ووجدت أنفسها عالة في كل شيء على الدول التي سرت خيراتها واغتصبت حقوقها ، واضطرت مع كل ذلك أن تعايش هذه الدول الغاصبة معايشة التابع للمتبوع ، والمتخلف للمتقدم ، وتدفع في سبيل ذلك أبهظ الأثمان ..

إذا كان العالم الإسلامي - بخاصة - والعالم النامي قد عرف ذلك وعاش متاعبه وآلامه . وبذل من الجهود والدماء ماتصور أنه به سوف يتخلص من هذه الأنواع من الغزو فإن الأعداء الماهرين الماكرين سريعاً ما يغيرون خططهم

ويستبدلون بأساليبهم العتيقة أساليب جديدة ، وهذا هو ما حدث في هذا العالم المعاصر التعيس ، فقد لجأ أعداء البلدان الإسلامية وأعداء الشعوب النامية إلى هذا الغزو الفكرى ، يكلون به أبعاد الصورة التي يرسمون لاستغلال الشعوب ، ويصلون به ما انقطع أو فاق تصور أنه انقطع من وسائلهم في احتكار خيرات الشعوب .

فما هو هذا الغزو الفكرى المكمل لأساليب الغزو التقليدية حيناً ، والبديل عنها أو عن بعضها في بعض الأحيان ؟

إن هذا الغزو الفكرى - في كلمات - هو أن تظل الشعوب الضعيفة أو النامية خاضعة لنفوذ القوى المعادية لها ، تلك القوى التي تمثل في عدد محدود من الدول الكبيرة التي نحمي بعضها بعضاً ويتبادل ساسها الدفاع عن المصالح التي تهم أى طرف من أطرافها ، بغض النظر عما يبدو على السطح في بعض الأحيان من خلاقات ، إذ الحق أنها خلاقات قشرية لا تتجاوز السطح بحال ، لما ثبت ذلك من خلال الواقع لكل من كان له قلب أو ألقى النظر إلى ما يدور بين هذه الدول الكبيرة من وثام وخصام ، وليس يخاف على ذى بصر أو بصيرة ما تنمرس به هذه الدول الكبيرة من هيئات ومؤسسات دولية أو إقليمية تخفى بها وجهها الحقيقى الحاقد الطامع الكره .

إن هذا الغزو الفكرى هو أن تظل بلدان العالم الإسلامى خصوصاً والعالم التامى عموماً تابعة لتلك الدول الكبيرة المتقدمة تبعية غير منظورة ، وفي هذه التبعية يكمن دهاء تلك الدول المتبوعة وذكاؤها ، فليس أقتل للشعوب من أن تحس بالحرية والاستقلال بينما هى ترسف في قيود الذل والتبعية ، إن ذلك مقتلة ذريعة لكل ما يجب أن تفكر فيه الدول الضعيفة لتقوى ، وليس أضيع لمستقبل أمة من الأمم من أن تعجز عن أن تخطط لمستقبلها ومصيرها إلا وهى دائرة في فلك دولة كبيرة واهمة ذاهلة عن حقيقة ما تعانيه من تبعية .

الغزو الفكرى هو أن تبني أمة من الأمم - وبخاصة الأمة الإسلامية -
معتقدات وأفكار لأمة أخرى من الأمم الكبيرة - وهى غير إسلامية دائما -
دون نظر فاحص وتأمل دقيق لما يترتب على ذلك التبني من ضياع لحاضر الأمة
الإسلامية - فى أى قطر من أقطارها - وتبديد لمستقبلها ، فضلا عما فيه من
صرفها عن منهجها وكتابها وسنة رسولها ، وما يترتب على هذا الصرف من
ضياع أى ضياع ، إذ لا يوجد مذهب سياسى أو اقتصادى أو اجتماعى يفتى
الأمة الإسلامية عن منهجها الإلهى ، ونظامها الشامل المتكامل فى كل زمان
ومكان .

الغزو الفكرى هو أن تتخذ أمة من الأمم مناهج التربية والتعليم للدولة من
هذه الدول الكبيرة ، فتطبقها على أبنائها وأجيالها ، فتشوه بذلك فكرهم
وتمسخ عقولهم وتخرج بهم إلى الحياة وقد أجادوا بتطبيق هذه المناهج عليهم
شيئا واحدا هو تبعيتهم لأصحاب تلك المناهج الغازية أولا . ثم يلبس الأمر
عليهم بعد ذلك فيحسبون أنهم بذلك على الصواب ، ثم يجادلون عما حسيوه
صوابا ويدعون إليه . وهم بذلك يؤكدون تبعيتهم من جانب آخر . فيعيشون
الحياة وليس لهم منها إلا حظ الأتباع والأذئاب .

الغزو الفكرى هو أن يحول العدو بين أمة من الأمم - وبخاصة الأمة
الإسلامية - وبين تاريخها وماضيها وسير الصالحين من أسلافها ، ليحل محل
ذلك تاريخ تلك الدولة الكبيرة الغازية وسير أعلامها وقادتها . فيشب المثقف
من أبناء تلك الأمة المقهورة وليس فى نفسه مثل إلا ما يقرأ عنه فى تاريخ
الدولة الغازية . وليس فى خلد أبطال إلا أبطالها ولا مفكرون إلا مفكروها ،
بل يصبح وهو لا يعرف من الحق والباطل إلا ما رآته هذه الأمة الغازية حقا
أو باطلا . فتشوه بذلك رؤيته الحق للناس والأشياء ويذهل عن تاريخه وسير
الصالحين من أسلافه فيذهل عن حاضره ومستقبله ويضل عن معالم طريقه .

الغزو الفكرى هو أن تراحم لغةً الغالب لغةً المغلوب فضلا عن أن تحل

محلها أو تخريبها بإحياء اللهجات العامية والإقليمية . ومادام الإنسان لا يفكر إلا باللغة - كما يجمع على ذلك العلماء - فإن إضعاف لغة أمة هو إضعاف لفكرها . وإحلال لغة أمة محل لغة أمة هو إجبار للأمة المغلوبة على أن تفكر كما تفكر الأمة الغالبة وأن ترى من العادات والتقاليد مثل ماترى الأمة صاحبة اللغة الغازية . وما سكنت أمة غازية في تاريخنا المعاصر عن لغة أمة مغزوة . وإنما تخطط لحربها بنفس الضراوة التى تخطط بها للاستيلاء على مقدراتها الاقتصادية . وليست الصورة الماثلة أمامنا في كثير من بلدان العالم الإسلامى . وفى كثير من بلدان العالم النامى بعيدة عن الأذهان .

الغزو الفكرى هو أن تسود الأمة المغزوة أخلاق الأمة الغازية وعاداتها وتقاليدها . وما دامت الأخلاق السائدة في أمة من الأمم هى المعيار الدقيق الذى تقاس به هذه الأمة ، فإن هذه الأخلاق يجب أن تكون تابعة من القيم الأصلية التى تسود الأمة وتحكم سلوكها وتوجهه ، فإذا ما استوردت أمة من الأمم أخلاقها وقيمها من أمة أخرى مسخت بذلك شخصيتها وتكرت لأصالتها وعاشت تابعة ذليلة للأمة التى قلدت أخلاقها وخسرت من مستقبل أجيالها ما يزيد اقتراباً من أصالتها ووجدت نفسها أمام التبعية والضياع .

هذا ما أتصوره من أضواء يمكن أن تلقى على مفهوم الغزو الفكرى لتوضيح حقيقة ومجازه بصفة عامة . وليس هذا التصور هو التحليل الأخير . وإنما يمكن أن يضاف إليه كثير من التفاصيل والجزئيات التى نعرفها الآن ونذكر آثارها . والتى يمكن أن تنشق عنه عقول الغازين من وسائل أدهى وأخفى في المستقبل القريب أو البعيد من تاريخ الصراع بين الأمم .

أما عندما يشعل أمر الغزو الفكرى بالعالم الإسلامى والفكر الإسلامى والشفافة الإسلامية فإن الكلام يحتاج منا إلى مزيد إيضاح ومزيد تركيز ، إذ الإسلام دين الله سبحانه الذى ارتضاه للبشرية كلها منهجاً وشريعة لحياتهم الدنيا ، ومعبراً وخسراً وزاداً لحياتهم الأخرى ، وهذا الدين كان وما يزال

بمبادئه ونظرياته ومثله وقيمه حرباً على كل انحراف بالبشرية عن الحق والميزان ، وأعداء الإسلام أعداء أصلاً للحق والميزان ، لأن الحق والميزان يحول بينهم وبين الاستغلال والعدوان ، لذلك فإن أصحاب المذاهب والنظريات المعادية للإسلام ما سكتوا عنه ولن يسكتوا وكيف بهم يسكتون وفي الإسلام ومبادئه حرب لهم ولما يمارسونه في الناس من أعمال .

من أجل ذلك أصبح الغزو الفكري للإسلام والمسلمين يستهدف الجذور لا القشور ويحاول القضاء على الجوهر لا العرض ، ويركز على تشويه الأصول لا الفروع ، ومن هنا تركز الغزو الفكري ضد الإسلام في حرب ضارية ضد أمرين خطيرين هما :

القرآن الكريم أصل الشريعة وما شرحه وفصله من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم في العالم الإسلامي كله .

واللغة العربية لغة القرآن والإسلام ، في العالم العربي بالدرجة الأولى ، وفي كل مكان يمكن أن يعنى باللغة العربية بعد ذلك .

وكل عمل وكل خطة يقوم بها أعداء الإسلام والمسلمين في الفكر أو الثقافة أو المبدأ والمذهب أو العادات والتقاليد ، أو الأدب والفن ، أو الزى والشكل ، إنما يعد معركة جانبية فرعية تخدم المعركة الكبرى معركة حرب أصل الإسلام وجذره وهو القرآن الكريم وحرب لغة القرآن اللغة العربية ، وما أكثر المعارك الجانبية وما أخبث خططها ، إذ تتناول مظاهر حياة المسلمين كلها ابتداء من تغيير الزى وتغيير العادة إلى تغيير الخلق والسلوك ، وانتهاء بتغيير المنهج والشريعة ، ومروراً بإفساد اللغة وإقصائها عن ألسنة المسلمين ، أي إقصاء القرآن عن ألسنتهم وقلوبهم وحياتهم .

هذا مفهوم الغزو الفكري ، وتلك هي تياراته المعادية للإسلام فيما أرى ، وسوف أتناول في ثنايا هذا البحث مظاهر هذا الغزو وتياراته ، من

حملات التشويه الموجهة ضد القرآن الكريم والسنة النبوية وشخصية الرسول صلى الله عليه وسلم ، وضد التاريخ الإسلامى كله ، وضد نظام الحياة الإسلامى ، وضد التراث الإسلامى بعامه ، وضد اللغة العربية لغة القرآن الكريم .

ثم أعطف على ذلك حديثاً عن ركائز هذا الغزو الفكرى وتلك التيارات من صهيونية وتبشير واستعمار ونظريات ومذاهب معادية كالديموقراطية والشيوعية والاشتراكية وإحياء القوميات ، ومن فلسفات هدامة مثل الوجودية والقوضوية والعزى والتخنىث والترجل ، وما لذلك كله من وسائل وأساليب .

وسوف أقدم على ما أقول من الأدلة والبراهين والشواهد ما يدعم صحة ما أقول ، والله المستعان وهو الهادى إلى سواء السبيل .

الأبعاد التاريخية للغزو الفكري ضد الإسلام

سوف لا نذهب بعيداً في الحديث عن هذه الأبعاد التاريخية للغزو الفكري وتياراته المعادية للإسلام ، على الرغم من أننا مقتنعون بأن هذا الغزو الفكري المضاد للإسلام بعيد الأغوار . مواكب لظهور الإسلام ، وذلك أن المقصود من هذا الغزو في عصرنا الحديث يحول بيننا وبين التعمق في تلك الأغوار ، طمعاً في أن نجلى صورته بهذا المفهوم الحديث الذي تحدثنا عنه آنفاً ، لكي نتجنب الأمة الإسلامية شره وخطره ، ونحسبنا في تصور أبعاد هذه العدوات الموجهة للإسلام أن نقرأ ما كتبه «درمنجهم» حيث قال : «أن الهوة التي احتفرها المسيحيون والمسلمون فيما بينهم لم تكن في الحقيقة بين الإسلام والنصرانية وإنما كانت نتيجة المنازعات المبنية على سوء التفاهم ، فأهل الكتاب كانوا بادئ ذي بدء أنصاراً لمحمد (صلى الله عليه وسلم) ثم لم يفتأوا أن أبوا الاعتراف بنبوته وأن هزئوا به ، كما أن المسلمين هم أيضاً من جهتهم تباعدوا ما أمكنهم عن النصرانية وأن مفسرى القرآن بدلاً من أن يظهروا ما بين الديانتين من الموافقات اجتهدوا في إثبات ما بينهما من المفارقات ، فالقرآن أقرب كثيراً إلى النصرانية من السنة المروية ، وعلى كل حال : الأحاديث المنسوبة إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) هي التي حفرت هذه الهوة بين الديانتين وفي هذه الأحاديث من الروايات المدخولة والموضوعات ما هو معلوم (هكذا زعم درمنجهم) .

ثم واصل «درمنجهم» حديثه فقال : «ولما نشبت الحروب عدة قرون

متطاوله بين المسلمين والمسيحيين ازدياد بينهم سوء التفاهم واشتدت البغضاء كثيراً ، وما يجب أن نعترف به أن أكثر البغضاء كان من جهة المسيحيين ، فقد كان البيزنطيون يعترفون بالإسلام بلا تأمل ولا بحث وجميعهم ما عدا يوحنا الدمشقي لم يحملوا أنفسهم على درس عقيدة الإسلام وإنما حملوا عليه بالظن والقذف بلا فحص ، وأخذوا يصورون محمداً (صلى الله عليه وسلم) بصور غريبة جداً ويشوهون من هذه الصورة ما أمكنهم (وذكر درمنجهم المطاعن التي كانوا يوجهونها إلى النبي صلى الله عليه وسلم مما أيننا نقله نظراً لسخفه وسفاهته وسقوطه من نفسه حتى إن درمنجهم نفسه هزأ كثيراً بهذه المطاعن بالرغم من كونه مسيحياً معتقداً)^(١) فالتناقض الذي بين اللتين كانت قواعده الأساسية أخباراً واهية مثل أن محمداً كان صنماً من ذهب ، وأن مساجد المسلمين هي هياكل ملأى بالتماثيل ، وقد ورد في أغنية اسمها «أغنية انطاكية» ما يفيد أن ناظم تلك الأغنية قد رأى في تلك الهياكل محمداً بشكل صنم من ذهب وفضة راكباً على فيل ، وهذا القيل على قاعدة من الفسيفساء ، ثم إن الأغنية المسماة بأغنية «رولان» والتي تمثل فرسان شرلمان وهم يحطمون أصنام المسلمين فيها أن المسلمين يعبدون ثالوثاً مؤلفاً من : ترفاجات ومحمد وأبولون (كل شيء خطر في البال إلا نسبة عبادة الثالوث إلى المسلمين)^(٢) .

ثم إن قصصاً يسمى قصص محمد (Roman du Mohamet) ورد فيه ما يفيد أن الإسلام يجيز اشتراك جملة رجال في زوجة واحدة !

ولقد طال أمد هذه البغضاء وهذه الأباطيل كثيراً منذ أيام «رودلف دولودهم» إلى أيامنا هذه أيام «نيقولا دو كوز» و «مراشي» و «هوتنجر» و «بييلندر» و «بريدو» فقد مثل هؤلاء محمداً - صلى الله عليه وسلم - كرجل كاذب ، والإسلام كعمل من أعمال الشيطان ، والمسلمين كقوم هج ، والقرآن

(١) مابن القوسين من كلام شكيب أرسلان .

ككتاب منسوخ من أوله إلى آخره ملئ بالمحالات ، وكانوا يزعمهم لا يجدون حاجة إلى الأخذ والرد في هزه كهذا .

ثم إن «بيير لوفنيرابل» مؤلف أول كتاب في أوربا ضد الإسلام ترجم مع ذلك في القرن الثاني عشر (الميلادي) القرآن إلى اللاتينية ، ثم في القرن الرابع عشر ظهر «بيير باسكال» فعلم عن الإسلام أكثر من غيره .

ثم إن البابا «ابنوشانيوس الثالث» قال عن محمد إنه المسيح الدجال . ولكن في القرون الوسطى بدأوا ينظرون إليه كرجل مبتدع ممن يقال لهم المهرطقة .

ثم ظهر «ريموند لول» في القرن الرابع عشر ، و «غليوم بوستل» في القرن السادس عشر ، و «رولان» و «غانبيه» في القرن الثامن عشر ، والأب «لابروجلي» و «رنان» في القرن التاسع عشر ، وكانت أحكامهم في هذا الموضوع متفاوته ليست على وتيرة واحدة .

أما «فولتير» فقد كان كتب الرواية المسماة برواية محمد ويناها على غير تحقيق ، ثم عاد فصصح قسماً كثيراً مما وهن فيه .

وقد ارتكب «مونتسكيو» بعد «باسكال» و «مالبران» أغلاطاً كثيرة فيما يتعلق بالإسلام نفسه ، إلا أنه كانت له آراء سديدة وأحياناً عادية فيما يتعلق بعبادات المسلمين .

ثم ظهر الكونت «دوبالانفيليه» و «شول» و «كوسين دوبرسفال» و «دوزي» و «سيرنجر» و «بارتلمى سانتيلير» و «دوكاستري» و «كارليل» وهؤلاء كانوا على وجه الإجمال موافقين للإسلام ولنبي الإسلام ، وربما أثروا عليها .

غير أن «دروقي» في سنة ١٨٧٦ م و «فوستر» سنة ١٨٢٢ م قد أفحشا

في الطعن في الإسلام وفي محمد (صلى الله عليه وسلم) ولا يزال للإسلام إلى يومنا هذا أعداء شديداً العصية .^(١)

وبحسبنا هذا التصوير للعداء المقيت الذي وجهه أبناء الغرب للإسلام والمسلمين وهو تصوير صادر من كاتب غير مسلم ، وهو دالٌّ على الأبعاد التاريخية للعداء الذي يضره المسيحيون أو الصليبيون للإسلام ، حسبنا هذا حتى لا نخرج عن سميت الموضوع وحدوده الزمانية الضاربة في القدم نسبياً ، ولنتحدث عن هذا الغزو الفكري في حدود العصر الحديث أو الفترة التي يفصلنا عنها قرنان من الزمان أو قرن ونصف على وجه التقريب ، فذلك هي الفترة التي زادت فيها قوة أعداء الإسلام واتسع نفوذهم ، وتعمق فيها تحالفهم من شرق وغرب ، ليواجه هذا الدين بضربات عنيفة ، وهي نفس الفترة - على وجه التقريب - التي غير فيها أعداء الإسلام أساليبهم في حرب المسلمين وغيروا وبدلوا من خططهم ، وألبسوا غزوهم من الأقنعة ما أخفى معالمة على كثير من المسلمين .

ولنتنظر في مواجهة أعداء الإسلام للدول والبلدان الإسلامية التي كانت تعيش في ظل الخلافة العثمانية في تلك الفترة التي نتحدث عنها .

في مطلع النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبالتحديد سنة ١٨٥٧ م استطاعت إنجلترا أن تستولى على الدولة الإسلامية في الهند استيلاء سياسياً ، وانتقلت منذ ذلك التاريخ سلطات الحكم في الهند الإسلامية إلى التاج البريطاني . وبذلك زالت من الوجود إحدى الدول الإسلامية الكبرى التي قامت في مستهل القرن السادس عشر الميلادي في آسيا الوسطى .

ولم يبق من العالم الإسلامي في آسيا آنذاك ألا الدولة الصفوية في إيران .

(١) لوثراب ستوارد - حاضرم العالم الاسلامى تعريب عجاج نويض تعليق المرحوم الأمير شبيب أرسلان . ٨٣/١ - ٨٥ .

والدولة التركية العثمانية في آسيا الصغرى وشرق أوروبا ، وسوف نتحدث عن ذلك بعد قليل .

وفي نفس العام - ولم يكن ذلك مصادفة على أى حال - ١٨٥٧ م استولى الفرنسيون على الجزائر كلها إلى الصحراء بعد أن كانوا قد بدأوا في غزوها سنة ١٨٣٠ م .

أما الدولة العثمانية فإن الحديث عنها ذو شجون ، وبحسبنا منه أن نشير إشارات عابرة نستجلى فيها تاريخ دولة مسلمة شامخة ، ثم نتحدث عن موقف أوروبا كلها من هذه الدولة .

إن هذه الدولة العثمانية التي عبرت أوروبا سنة ١٣٥٣ م واتخذت بعد ذلك بقليل أدنة حاضرة أوروبية لها ، ثم امتد نفوذها وسلطانها من بحر إيجه إلى نهر الطونة مستوية على جميع أجزاء بلغاريا ومقدونية وتاليا وتراقيا ... ثم إلى الإديرياتيك . ثم القسطنطينية وألبانيا والبوسنة والصرب وبلاد المجر وإقريطش وغيرها . وقد تم كل ذلك في ثلاثة قرون أو يزيد ، حيث وقفت جيوش تلك الدولة على أبواب فينا سنة ١٦٨٣ م .

ولن ينسى التاريخ لمحمد الثاني أنه حمى الكنيسة الإغريقية وحرّم اضطهاد المسيحيين تحريماً قاطعاً . وأعطى للبطريرك والأساقفة من الحصانات ونفوذ الكلمة ما يعد بحق صورة نابضة من صور تسامح الإسلام مع أهل الكتاب ، وكذلك عومل الأساقفة نفس المعاملة الحسنة في كل الولايات التي تخضع للدولة العثمانية .

وليس أدل على تسامح الدولة العثمانية مع المسيحيين من كلمات «ريشارد ستير» وهو تاجر إنجليزي كان في تركيا سنة ١٥٧٨ م حيث قارن بين المسلمين الأتراك وبين المسيحيين في معاملة المسيحيين أنفسهم فقال : «... وعلى الرغم من أن الأتراك بوجه عام شعب من أشرس الشعوب بسيورهم في أعمال الظلام ... سمحوا للمسيحيين جميعاً ، للإغريق منهم واللاتين أن يعيشوا

محافظين على دينهم ، وأن يصرفوا ضمائرهم كيف شاءوا ، بأن منحوهم كنائسهم لأداء شعائرهم المقدسة في القسطنطينية ، وفي أماكن أخرى كثيرة جداً ، على حين أستطيع أن أؤكد بحق - بدليل اثني عشر عاماً قضيتها في إسبانيا ، أننا لا نرغم على مشاهدة حفلاتهم البابوية فحسب : بل إننا في خطر على حياتنا ولسعنا»^(١) .

كذلك صاح مقاريوس بطريق أنطاكية يثني على تسامح الأتراك المسلمين ووحشية البولنديين في معاملة المسيحيين فقال : «أدام الله بقاء دولة الأتراك خالدة إلى الأبد ، فهم يأخذون ما فرضوه من جزية ولا شأن لهم بالأديان ، سواء أكان رعاياهم مسيحيين أم ناصريين ، يهود أو سامرة ، أما هؤلاء البولنديون الملاحين ، فلم يكتفوا بأخذ الضرائب والعشور من إخوان المسيح ، بالرغم من أنهم يقومون بخدمتهم عن طيب خاطر ، بل وضعوهم تحت سلطة اليهود الظالمين أعداء المسيح الذين لم يسمحوا لهم حتى بأن يبنوا الكنائس ولا بأن يركبوا لهم قساً يعرفون أسرار دينهم»^(٢) .

وهذا هو «أبروتس فوليشا» أحد أشرف جنوة يقول : «... وطلما تساءلت : وكيف يحدث أن عدداً كبيراً جداً من رجالنا بأوى إليهم - يقصد الأتراك - باستمرار ويتشكر للديانة المسيحية وينضوي تحت لواء الشريعة الإسلامية»^(٣) .

على أن الفرية التي تقول بأن المسيحيين اتجهوا إلى الإسلام هروباً من الجزية التركية ، فرية لا تستند إلى أي أساس صحيح ، لأن هذه الجزية أو

(١) سير توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام . على التوالي هامش ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٣ ، ١٧٥ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) المرجع السابق .

الضريبة لم تكن تجاوز دوكة واحدة عن كل رأس أى مايساوى مايتراوح بين ٢.٥ قرشين ونصف قرش ، و ١٠ عشرة قروش عن كل ذكر بالغ ، كل حسب دخله ، ولما زادت هذه الجزية زيادة ملحوظة في القرن التاسع عشر كانت تتراوح بين ١٥ خمسة عشر ، و ٣٠ ثلاثين . و ٦٠ ستين قرشاً ، كل على حسب دخله كذلك ، هكذا اعترف الكتاب المسيحيون بعامه والمؤرخون منهم على وجه الخصوص . وما يعقل أن واحداً من الناس يترك دينه - مها كان ذلك الدين - من أجل مبلغ سنوى زهيد إلى هذا الحد !

على أننا هنا لا ندعى أن الدولة العثمانية كانت دولة إسلامية مبرأة من العيوب ، أو كانت ملتزمة بحدود الشريعة الإسلامية ونظمها في كل أمرها . إذ المعروف لدى كل منصف من الباحثين المسلمين أن لتلك الدولة مخالفات كثيرة لشريعة الإسلام ، وأن أبرز هذه المخالفات كان يتمثل في ضريبة الأبناء - وهى أخذ الأبناء من آبائهم المسيحيين في سن مبكرة لينتظموا في الجيش التركي قسراً - على أن هذه المخالفة لشرع الله لم تكن عامة أو مفروضة على كل مسيحي . وإنما كان يكتفى من كل مدينة بأن يتبرع أهلها بولدين أو ثلاثة أو أربعة في كل سبع سنوات^(١) .

قرر ذلك «متروفانس كريتببولوس» فيما كتبه عن ذلك سنة ١٦٢٥ م . وهذه الضريبة على قتلها وتباعد الفترة الزمنية التي تجب فيها ، ليست جائزة في شريعة الإسلام لأكثر من سبب ، لمخالفتها لأكثر من نص ، ولكنها على الرغم من ذلك لم تكن السبب في إقبال كثير من المسيحيين على الدخول في الإسلام - كما يزعم الزاعمون .

ولم تستطع أوروبا وروسيا القيصرية مجتمعين ومتفرقين أن يسكوا على تلك المكانة التي احتلتها تركيا المسلمة في نفوس المسيحيين ، فأخذت تكيد وتدبر وتحيك المؤامرات والفسائس ، كانت الحروب والصراعات بين تركيا وبين

(١) المرجع السابق

هؤلاء ، وبدأت الأنظمة الداخلية للدولة العثمانية التركية تسوء شيئاً وراء شيء ، حتى تباعدت كثيراً عن الإسلام وروحه ومنهجه ونظامه وعند ذلك أصبحت تلقب عند أعدائها بدولة الرجل المريض الذى يوشك أن يفنى ، فما إن بدأت حرب استقلال اليونان عن تركيا حتى تحالفت روسيا وانجلترا وفرنسا والنمسا ضدها ، وما إن استطاعت قوات مصر بقيادة إبراهيم بن محمد على أن تقف بجوار تركيا وأن تحقق لها بعض الانتصارات على أعدائها فى اليونان ، حتى تحالفت كل القوى الأوروبية والروسية من أجل تحقيق هدفين :

الأول : هو القضاء على الأسطول المصرى فى معركة نغازين البحرية ، حيث واجهته أساطيل روسيا وانجلترا وفرنسا وحقت عليه انتصاراً كبيراً .

والثانى : عقد اتفاق منفرد مع محمد على ليتخلى عن معاضدة تركيا أو الوقوف معها فى حرب .

وقد نجحت هذه الدول المتحالفة ضد تركيا فى الوصول إلى تحقيق هدفها معاً ، بغض النظر عما بدأ بين هذه الدول المتحالفة (انجلترا وفرنسا وروسيا والنمسا) من خلافات هى فى الحق قشرية سطحية ، أشبه ما تكون باختلاف اللصوص على تقسيم المالك المسروق .

وما إن بدأ عهد السلطان عبد العزيز حتى انتشر النفوذ الغربى فى تركيا ، وانتشر الغزو الفكرى الأوروبى لبلاد المسلمين وجذت المحاولات المستميتة من الأعداء للقضاء على مظاهر الحضارة الإسلامية ، وتمخض ذلك عن قيام حزب تركيا الفتاة بتحريض من عدد من الأجانب الأعداء الألداء لكل ما هو إسلامى ، متحالفة هذه الجماعة مع المحافظ الماسونية الدولية ، وليس لكل هؤلاء من هدف إلا أن تصبح تركيا وقد تنكرت للإسلام مبادئه ونظمه ، وقد نجح هذا التحالف فى الوصول إلى هدفه كذلك .

وما إن قامت الحرب العالمية الأولى حتى بدت النوايا وأخذت في الوضوح حين أعلنت روسيا الحرب على تركيا ، ثم - وعلى وجه من السرعة ملحوظ - أعلنت إنجلترا وفرنسا الحرب على تركيا كذلك .

وعند النظر في اتفاقية ٢٦ من إبريل سنة ١٩١٦ م بين إنجلترا وفرنسا وروسيا نجدها تصرح بما كان مضمراً وتسفر عما كان خيئاً ، فهي تنص على أن يكون لإنجلترا في الدول العربية المستقلة المزمع قيامها منطقة نفوذ في : العراق وسوريا وميناء حيفا وعكا - وكانت إنجلترا قد احتلت قبل ذلك مصر - ، وتنص الاتفاقية على أن يكون لفرنسا نفوذ في الشريط الساحلي من سوريا ، وولاية أطلنة وقليلية وجنوب كردستان بما في ذلك مدينة خربوط - وكانت فرنسا قد احتلت من قبل تونس إلى جانب احتلالها السابق للجزائر - ونصت الاتفاقية على إعطاء روسيا بلاد أرمينيا وجزءاً من بلاد كردستان ، وشمال الأناضول وغربي طرايزون إلى نقطة تحدد فيما بعد .

ويبدو أن الحلفاء لم يستطيعوا أن يتفقوا على شيء في أمر فلسطين يخضعها لإحدى الدول المتحالفة - لأن الخطة كانت موضوعة لتمكين اليهود من فلسطين - فاتفقوا على أن تكون فلسطين تحت إدارة دولية ، وهكذا تبددت أجزاء الدولة التركية المسلمة .

وعند نظرة أخرى إلى اتفاقية «سايكس - بيكو» بين إنجلترا وفرنسا ، نجد أنها تنص على أن تكون الأراضي المشار إليها مناطق تحت إدارة كل من إنجلترا وفرنسا وسائر البلاد العربية ، فهي مناطق نفوذ إنجليزية أو فرنسية سواء أتم تنظيمها في دول عربية أو اتحاد من الدول العربية ، وهذا هو التزيق للعالم الإسلامي والاحتلال العسكري المسلح لمعظم أجزائه ، ومع هذا الغزو العسكري أو بعده بدأت عمليات الغزو الفكري وآت ثمارها لدى أصحابها . فسخت الفكر الإسلامي وشوهت الحضارة الإسلامية وهزت كيان الشخصية المسلمة .

وكان من ثمار هذا الغزو الفكرى للإسلام والمسلمين أن قام بعض مفكرى المسلمين باستحداث حركات سموها حركات تقدمية فى الإسلام ، فأدخلوا بها على الإسلام ما ليس منه ، وأخرجوا منه ما هو من صميمه ، وزعموا أن هذا الخلط هو الإصلاحات الإسلامية التى يجب أن يقوم بها المسلمون ليعيشوا عيشة متحضرة تتلاءم وتواكب الحضارة الأوروبية التى أصبحت فى نظرهم مثلاً يحتذى ، رأينا ذلك رأى العين فيما نادى به الزعيم الهندى - المسلم - السيد أحمد خاان ، وفيما تفرع عن أفكاره ودعوته التجديدية من استحداث مذهبين جديدين فى المسلمين هما : المذهب القاديانى والمذهب الأحمدي ، وهما فى الحق ليسا من الإسلام فى شيء .

هذا أثر الغزو الفكرى المعادى للإسلام فى المسلمين أنفسهم وبخاصة فى المفكرين والقادة منهم وتلك تياراته .

وأما ثمره هذا الغزو الفكرى فى غير المسلمين من تلك الجيوش المنظمة الجاررة من المبشرين والمستشرقين والصليبيين والصهيونيين فإنها بدت فى إذكاء نار الخلافات المذهبية بين المسلمين والتشجيع على توسيع الهوى بين المختلفين . وإعادة نيران الفتن بعد أن خبت بمرور الزمن . وذلك عن طريق ما قام به المبشرون والمستشرقون من دراسات وبحوث ، وما سجلوه فى دوائر المعارف المنسوبة إليهم والمتخصصة فى الإسلام والمسلمين . وعن طريق ما قاموا بعقده من مؤتمرات أكدوا فيها مقررات غاية فى الخطورة ، وعن طريق ثالث هو : تعمدهم تشويه الفكر الإسلامى وتهجمهم على الإسلام والقرآن والسنة النبوية وشخص الرسول صلى الله عليه وسلم . وتشويههم للحضارة الإسلامية والتاريخ الإسلامى ولتراث الإسلامى كله .

وعن طريق رابع هو إشاعة النظم السياسية والنظم الاجتماعية والاقتصادية الغربية بين الشعوب الإسلامية بقصد القضاء على النظم الإسلامية للسياسة والاجتماع والاقتصاد . لينزل المسلمون عن دينهم منهجاً وحركة ونظاماً .

وعن طريق إعلاء شأن الحضارة الأوروبية وربط التمسك بها والتمسكين بها بعجلة التقدم والتحضر والمدنية وما يترتب على ذلك من تفور بعض المسلمين من حضارتهم ودينهم وقيمهم الإسلامية كلها .

وبعد : فتلك هى الأبعاد التاريخية للغزو الفكرى والتيارات المعادية للإسلام فى صورتها المصغرة التى لا أقصد منها الاستيعاب ولا التوسع ، وإنما القصد منها هو أن تكون مدخلاً للبحث وباباً إليه .

الباب الأول

مظاهر الغزو الفكري وتياراته

وفيه فصلان

الفصل الأول:

حملات التشويه الموجهة ضد الإسلام

الفصل الثاني:

حملات التغريب الموجهة ضد الإسلام

البَابُ الأولُ

مظاهر الغزو الفكري وتياراته

اتخذ الغزو الفكري للإسلام والمسلمين في العصر الحديث مظاهر عديدة ، واتجهت تياراته في مجارى عمقها صانعوها وزادوا في طولها وعرضها حتى طافت بالعالم الإسلامى كله ، حاملة إليه السم في العسل ، أو الموت فيما يزعمون أنه الدواء .

ونستطيع أن نتعرف على تلك المظاهر للغزو الفكري وتياراته في حملات التشويه للإسلام ككتابيه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وشخصه الكريم المعصوم ، وحملات التشويه للتاريخ الإسلامى ونظام الحياة الإسلامى وللتراث الإسلامى كله .

كما نستطيع أن ندرك مظاهر هذا الغزو في حملات التغريب للحضارة الإسلامية وللمسلمين أنفسهم ، كتغريب التعليم والثقافة والنظم الاجتماعية والسياسة والاقتصادية ، وتغريب الأخلاق والآداب ، ثم تكون قة التغريب بتغريب اللسان لقطعه عن لغة القرآن اللغة العربية الفصحى .

ولقد قامت على نشر هذا الغزو الفكري وترويجه مؤسسات عديدة ومراكز خطيرة منها : الصهيونية والتبشير والاستعمار والمبادئ والنظريات المعادية للإسلام مثل الديمقراطية والشيوعية والاشتراكية والقوميات .

ومنها : الفلسفات الهدامة كالوجودية والفوضوية واتخاذ العرى مذهباً ، واتخاذ التخث للرجال والتبرجل للنساء أسلوباً في الحياة .

ومنها : وسائل التخريب التى توجهها الصهيونية فى الغالب لهدم القيم
الخلقىة كالسبى والمسرء والملاهى والتواذى والجمعىات الهدامة كالماسونىة و
أندىة الروتارىء وعىرها .

وهذه كلها ركائز للغزو الفكرى ، ونقط انطلاق تتحرك منها الحملات
وننطلق لتغزو ، ثم نعود بكل خبىث هدام من وسائل حرب الإسلام
والمسلمىن .

ولنبداً حدىثنا عن حملات التشوىة للإسلام كتابه وسنة رسوله صلى الله
علیه وسلم ولشخصه الكرم ولتارىخه ونظامه وتراثه .

الفصل الأول

حملات التشويه الموجهة ضد الإسلام

وتشمل:

- ١ محاولة تشويه القرآن الكريم
- ٢ محاولة تشويه السنة النبوية
- ٣ محاولة تشويه شخص الرسول
(صلى الله عليه وسلم)
- ٤ محاولة تشويه التاريخ الإسلامي
- ٥ محاولة تشويه نظام الحياة الإسلامية
- ٦ محاولة تشويه التراث الإسلامي

حملات التشويه الموجهة ضد الإسلام

تناولت هذه الحملات أصل الإسلام وهو القرآن الكريم والتفسير الصحيح لهذا الأصل وهو السنة الصحيحة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووجهت هذه الحملات سمومها إلى الفكر الإسلامى والتاريخ الإسلامى على النحو الذى سنفصله فى الصفحات التالية من هذا البحث .

وهذا التشويه يستهدف أهدافاً خيثة ، لا تحق على من يتأمل خطط الأعداء ويولبها شيئاً من الاهتمام ، فمن بين ما تستهدفه هذه الحملات التشويهية أن تهتر ثقة المسلمين فى دينهم لما يدخل الأعداء من تشويه على أصله الأصيل كتاب الله سبحانه القرآن الكريم ، وعلى سنة الرسول صلى الله عليه وسلم ، التى تكفلت بشرح هذا الأصل وتفسيره ، فإذا ما اهترت ثقة المسلمين فى دينهم أصبح الواحد منهم يعانى من فراغ رهيب فى نفسه وعقله وعاطفته وغدا النظام الإسلامى فى الاجتماع والسياسة والاقتصاد عنده لا يقنع ولا يحقق له شيئاً من مطالبه ، وعندئذ تلقاه دعايات هؤلاء الأعداء لحضارتهم ونظمهم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية فيصبح فريسة لها وما هو إلا أن يرغى فى شباكها فيضج اعتراضه بدينه ويصبح تابعاً خاضعاً لعدوه .

ومن بين أهداف الحملات التشويهية تلك . أن يقيم هؤلاء الأعداء الحواجز بين الإسلام وبين الجموع البشرية المقبلة عليه من الوثنيين فى آسيا وأفريقية بل من الذين أدخلوا فى المسيحية قسراً أو عن طريق المؤسسات التبشيرية المنبثة فى آسيا وأفريقية ، إذ ليس هناك ما يحول بين هذه الجموع وبين الإسلام إلا أن تشوه صورة الإسلام كتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وتاريخه وتراثه أمام الناس .

إلى غير ذلك من أهداف يستهدفونها من وراء حملات التشويه تلك .

محاولة تشويه القرآن الكريم

ليست محاولات تشويه القرآن الكريم حديثة أو معاصرة . وإنما هي ممتدة في التاريخ الإسلامي مواكبة لحياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، حمل لواءها أعداء الإسلام من يهود ، ومن الوثنيين والنصارى أجيالاً بعد أجيال إلى يومنا هذا .

وليس من هدفنا هنا أن نتبع حملات التشويه للقرآن الكريم عبر كل هذا التاريخ ، وإنما نحاول أن نتحدث عنها في الإطار الزمني الذي حددناه لهذا البحث وهو قرنان أو قرن ونصف قرن من الزمان .

من أخطر من عبثوا بالقرآن الكريم وتعمدوا تشويهه كُتَّاب «دائرة المعارف الإسلامية» وبخاصة من كتب منهم في التعريف بكلمة «الله» سبحانه وتعالى . وهو المستشرق الحافظ الخطر «ماكدونالد» D. B. Macdonald حيث أساء هذا المستشرق وأخطأ وتخط وأضر بنفسه وبالحقيقة العلمية أكثر مما أضر بالإسلام أو بالقرآن الكريم أو بالرسول محمد صلى الله عليه وسلم .

وإن القارئ لمقاله ذاك في «دائرة المعارف الإسلامية» ٢٤٤/٤ ط دار الشعب بالقاهرة ، يستطيع أن يرى ما تخط فيه الكاتب ، وما قال فيه من غير علم أو تعقل ، فلا هو عارف بتاريخ العقائد عند الجاهليين ، ولا هو فاهم أصول التعبير العربي الصحيح ، ولا هو مدرك أنه بذلك الخطأ والتخط يفضح نفسه عند كل قارئ وعند كل منصف ، ويكشف عن تعصبه الذي أعماه عن الحق .

ولقد تجرد للرد عليه في هذه المزايعم والأباطيل مستشرق آخر هو «كارديه» : L. Gardet . فردّه عن بعض الخطأ ، فبدا «كارديه»

أكثر تعقلاً وحكمة ، غير أن ما رد به «كاردية» فيه خلل كبير ، وكان ينقصه التحرى والدقة وإن أعجب بعض النقاد والمعلقين .

ولنضرب الآن مثلاً واحداً على تخطيط «ماكدونالد» في حديثه عن القرآن الكريم وهو يتحدث عن عقيدة الجاهليين في الله سبحانه ، وذلك أن «ماكدونالد» ينهم القرآن - وذلك هو بيت القصيد - بأنه من عند محمد صلى الله عليه وسلم ، وليس من عند الله ، وتلك هى الطمعة التى يوجهونها للقرآن ويلحون فى إثباتها يقول «ماكدونالد» فى حديثه ذاك : «... كما أنه من المحقق أن أهل مكة جعلوا بينه وبين الجنة نسباً... وجعلوهم شركاء لله .. وقدموا لهم القرابين وكانوا يعوذون بهم . ولنا نعلم علم اليقين : هل كانت قد وجدت لديهم ثمرة عن الملائكة أو أنهم جعلوهم شركاء لله ، وربما كان هذا تفسيراً من عند محمد ...» (١) .

والذى يعنينا من هذه العبارة ادعاؤه أن القرآن الكريم تفسير من عند محمد ﷺ . والعجيب أنه بينما يدعى هذه الدعوة الباطلة نجده يعتمد فى كلامه أحياناً على آيات قرآنية .

ثم يبلع فى موضع آخر على أن القرآن الكريم من تأليف محمد ﷺ وأنه يزيد فيه أو ينقص منه حسب ضرورات السجع فى الكلام فيقول : «وقد عرف محمد الله بأنه الملك المتقم القيور . وأنه سيحاسب الناس من غير شك ويعاقبهم فى اليوم الآخر . وبذا تحولت تلك الفكرة الغامضة عن الله الى ذات لها خطر عظيم . وينبغى لنا أن نتبسط فى الكلام على هذه الذات كما تصورها محمد ﷺ . ومن حسن التوفيق أن لوازم السجع حملته على وصف الله بعدة صفات يتردد ذكرها كثيراً فى القرآن .. وتبين شغف محمد ﷺ بهذه الصفات وشدة تمسكه بها : وكانت الفطرة السليمة هى التى دفعت المسلمين بعد محمد ﷺ الى جمع هذه الصفات وتقديسها ، وهذه الصفات تعبر

(١) دائرة المعارف الإسلامية : ٤ / ٢٤٥ ط دار الشعب القاهرة .

عن حقيقة اله محمد ﷺ أحسن مما تعبر عنها الصفات التي ذكرها علماء الكلام في القرون الوسطى ، وهي تعبتنا كثيرا في فهم وتحديد عبارات محمد ﷺ المبعثرة المتناقضة^(١) ، ثم يعاود «ماكدونالد» محاولاته في تأكيد وهمه بأن القرآن الكريم ليس من عند الله فيوهم قارئه بأن هذا القرآن من صنع محمد ﷺ وأنه كان من السهل عليه أن يزيد أو ينقص منه ، فيقول «وكان شعراء العرب من قبل قد أظهروا مقدرة فائقة في استعمال الصفات ولكن صفة «الواجد» لم يرد ذكرها في القرآن ، ولو أنه كان من السهل أن ترد فيه^(٢)»

ثم يلج على الصاق نعمة صنع القرآن بمحمد ﷺ ، فيزداد تحبطا حيث يقول «... ومن أسمائه - يعنى الله سبحانه - السلام ، وهذه الصفة لم ترد الا في الآية ٢٣ من سورة الحشر ومعناها شديد الغموض ، ونكاد نقطع بأنها لا تعنى السلم ويرى المفسرون أن معناها السلامة أى البراءة من النقاش والعيوب وهو تفسير محتمل وقد تكون هذه الصفة كلمة بقيت في ذاكرة محمد من العبارات التي تتلى في صلوات النصارى^(٣)»

ولست أدري بماذا أرد على باطل «ماكدونالد» ومزاعمه ؟ وليس فيما زعمه شيء يستند إلى دليل أو هو دليل ، وبحسبه أن يفند مزاعمه مستشرق آخر هو «كارديه»

ولو ذهب أستقصى المستشرقين في تشويه القرآن الكريم لما وسعني مئات الصفحات ولكني سوف أكتفي من هذا العدد العديد بمستشرقين آخرين هما المستشرق «جب» والمستشرق «هـ ج ليوبلز»

فالمستشرق «جب» يتحدث عن محمد صلى الله عليه وسلم وعن تأليفه للقرآن الكريم فيقول «إن محمداً ككل شخصية مبدعة قد تأثر بضرورات

(١) السابق ٢٤٦ / ٤ ٢٤٧ (٢) السابق ٢٤٧ / ٤ (٣) السابق ٢٤٨ / ٤

الظروف الخارجية عنه المحيطة به من جهة ، ثم هو من جهة أخرى قد شق طريقاً جديداً بين الأفكار والمعتقدات السائدة في زمانه والدائرة في المكان الذي نشأ فيه .

ثم يواصل «جب» حديثه عن محمد والقرآن فيقول : «إن مكة كانت فيها حياة زاخرة بالتجارة والسياسة والدين ، وأنه وجدت فيها زعامة وزعماء ، وأنه وجد ظلم اجتماعي بين سكانها ، وأن الرسول محمداً انطبع في نفسه كل هذه الجوانب ، وكان على وعي تام بها ، وترى آثارها في حياته وفي قرآنه وفي كفاحه إلى أن مات»^(١) .

وافترأت «جب» واضحة البطلان بيئة اليتان ، تفقد المنطق وتجانب الصواب .

ثم يواصل «جب» افترأته فيقول : «ومحمد في البداية لم يكن نفسه على علم بأنه صاحب دعوة إلى دين جديد ، بل كانت معارضة المكيين له ، وخصومتهم له من مرحلة إلى أخرى ، هي التي قادته أخيراً وهو بالمدينة بعد أن هاجر إليها ، إلى إعلان الإسلام كجماعة دينية جديدة بإيمانها الخاص ، بمنشأتها الخاصة .

ويبدو أن معارضة المكيين له لم تكن محافظتهم وتمسكهم بالقديم أو بسبب عدم رغبتهم في الإيمان ، بل ترجع أكثر ما ترجع إلى أسباب سياسية واقتصادية ، لقد تملكهم الخوف من آثار دعوته التي تؤثر على ازدهارهم الاقتصادي وبالأخص تلك الآثار التي يجوز أن تلحق ضرراً بالقيمة الاقتصادية لمقدساتهم .

وبالإضافة إلى ذلك فإن المكيين قد تصوروا - أسرع مما تصور محمد نفسه - أن قبولهم لتعاليمه ربما يمهد لنوع معقد من السلطة السياسية داخل جماعتهم التي كانت تحكمها فئة قليلة حتى ذلك الوقت»^(٢)

(١) جب : المذهب المحدثي : ٢٥ وما بعدها . (٢) السابق : ٣٨ .

وخلصة ما يرى «جب» أن محمداً صلى الله عليه وسلم قد تأثر بالبيئة التي عاش فيها ، وشق طريقه بين الأفكار والعقائد الشائعة في بيئته ، فالقرآن كما يرى «جب» من صنع محمد صلى الله عليه وسلم ومن ملاءمات هذه البيئة التي عاش فيها .

ومن سَقَطَ ما قاله «جب» أن أهل مكة عارضوا محمداً صلى الله عليه وسلم ، لا لمخالفة عقائدهم ووثنيهم وزيغهم وصدودهم ، وإنما المعارضة قامت عنده ونمت ووصلت إلى الحد الذي وصلت إليه بسبب التنافس على الزعامة وعلى المصالح الاقتصادية والسياسية .

وقفة الباطل عنده ادعاؤه بأن القرآن الكريم كان أثراً من آثار إحساس الرسول صلى الله عليه وسلم بالظلم الاجتماعي الذي ساد أهل مكة . وأن أثر هذا الإحساس وهو القرآن الكريم بدا واضحاً في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم وفي كفاحه إلى أن مات .

وأما المستشرق : هـ . ج . ويلز ، فإنه يردد نفس التهم التي تستهدف تشويه القرآن الكريم وتشويه الإسلام نفسه بذلك ، فهو يردد أن محمداً صلى الله عليه وسلم هو الذي صنع القرآن الكريم . ونحن ننقل عن : ويلز من كتابه الذائع الصيت : «معالم تاريخ الإنسانية» الذي ترجم إلى العربية وطُوف آفاق العالم الإسلامي ، وحظى بالرضى والقبول من الدارسين .

يقول «هـ . ج . ويلز» عن الرسول ﷺ : «وحدث في مكة قرابة سنة ٥٧٠ ميلادية أن ولد محمد ﷺ مؤسس الإسلام ، وولد له أطفال عديدون كان اسم أحدهم «عبد مناف» أي خادم الرب المكي «مناف» وهذا يدل على أن محمداً ﷺ لم يكن قد توصل في ذلك الوقت إلى أية اكتشافات دينية ، ويحتمل أنه رأى كائنات مسيحية في سوريا ، ويكاد يكون محققاً أنه كان يعرف الكثير عن اليهود ودياناتهم ، وأنه استمع إلى سخريتهم من ذلك الحجر الأسود في الكعبة ، الذي كانت له السيادة على الأرباب

القبلية الثلاثمائة ببلاد العرب ورأى جماهير الحجيج ، ولحظ أمارات الختل وعدم الإخلاص والخرافات المتجلية في وثنية البلدة ، فضاق بذلك ذرعا ، وربما كان اليهود قد هدوه الى الاعتقاد في الرب الواحد الحق دون أن يدرك ماحدث له - وجاء بآيات معينة أعلن أنها قد أوحيت إليه عن طريق ملك من السماء^(١) .

ثم يقول ويلز في موضع آخر من كتابه السابق تحت عنوان « محمد يصبح نبيا منافحا » : « لقد ظلت شخصية نبي الإسلام حتى الهجرة ، أى حتى أتم الحادية والخمسين من عمره موضوع تجاذب وتنازع بين أهل الرأي ، فبات من بعدها يسطع عليه ضياء التاريخ ، وانا لنستبين فيه رجلا ذا قوة تصورية هائلة . وإن كانت عرجونية على طريقة العرب ، ولها أغلب مزايا البدوى وأهم نقائصه » .

ثم يصل المؤلف إلى قمة مايريد قوله ، حيث يقول : لم يكن محمد ﷺ دجالا بأي حال وإن كان اعتداده بنفسه بدعوه في بعض الأحيان أن يتصرف كأنما كان الله رهن إشارته ، كأنما أفكاره بالضرورة أفكار الله .. ،^(٢) .

وفي موضع آخر من كتابه ذلك يقول : « فلما انتشرت التعاليم الجديدة وتكيفت في قلوبها الخاص اضطرت أن تعمل على أسس ظلت على الدوام أبعد ما تكون عن المجانسة لطبيعتها ، والتمت أن تنمو في تربة أخرجتها عن سبيلها السوى ، وحولتها عن طريقها القويم ، وكان مرجعها الوحيد هو القرآن ، وهذا الكتاب كان يبدو للعقول التي لم تتذوق نفحات اللغة العربية ، أعنى كما يبدو لكثير من العقول الأوروبية اليوم خليطا من البلاغة الرائعة

(١) هـ . ج . ويلز : معالم تاريخ الإنسانية ٣ / ٦٦٦ . وما بعدها . (٢) السابق ٣ / ٦٦٦ .
٦٤٠ . مقتبسات متفرقة .

بمازجها - ولنقلها بصراحة - مقنعة غامضة لا كيف لها ، وقد غاب مغزاه الحق عن عدد لا يحصى من المسلمين الجدد غيابا تاما^(١) .

وبعد : فهذا مجملٌ لآراء عدد قليل من المستشرقين في القرآن الكريم ، وهو صورة دقيقة الدلالة على ما يهتمون به القرآن الكريم من أنه كتاب محلي إقليمي . أو أنه كتاب يتأسي ديانة اليهود أو النصارى ، أو أنه من صنع محمد ﷺ !!!

ولو شئنا أن نستطرد بسرد آراء عدد آخر من المستشرقين لاتسع بنا القول إلى الحد الذي لانريده ، فحسبنا من هذا البهتان أن نشر إلى طرف منه ، كما أننا هنا بصدد أن نرد على هذه الأباطيل والترهات ، فإن البهتان فيها أوضح من أن يحتاج إلى مناقشة أو رد أو حوار ، فضلا عن أن ما كتبه كثير من علماء المسلمين وقليل من المنصفين من الباحثين الغربيين فيه مقنع وغناء .

ولم يجد واحد من هؤلاء الحاقدين على الإسلام والراغبين في تشويهه ، حجة أو دليلا يؤيدون به ما أذاعوه من باطل وما اختلقوه من بهتان . وبحسبنا أن التاريخ نفسه يقف من هؤلاء الحاقدين وقفة المعارض المكذب لكل ما افتاتوا به على الإسلام .

غير أني لا أستطيع أن أتترك هذا المجال دون أن أطرح بعض التساؤلات وأثير بعض النقاط فأقول : لست أدري كيف يتساءل «ماكدونالد» فيقول : هل كانت قد وجدت لديهم - يقصد الجاهلين - فكرة عن الملائكة أو أنهم جعلوهم شركاء لله ؟ ثم يعطف على ذلك قوله : وربما كان هذا تفسيرا من عند محمد ... أي أن محمدا قد ألف القرآن وتحدث فيه عن الملائكة الذين لم تكن لدى العرب عنهم فكرة سابقة .

ولو كان «ماكدونالد» الذي يبيح لنفسه أن يكتب عن القرآن والاسلام

(١) السابق : ٣ / ٦٥٧ .

يعرف قدرا يمكنه من الفهم الصحيح لما يقول ، لما قال ما قال . فلفظ «ملائكة» لفظ عربى أصيل . قال أبو عبيدة : ملك : فعل من لأك أى أرسل . والألوكة والملائكة : الرسالة ، قال لييد :
وغلّام أرسلنه أمه بألوك فبذلنا ما سأل

وقال عدى بن زيد :

أبلغ النعمان عنى مائكا أننى قد طال حبسى وانتظارى

واشتقاق الملك من الألوكة وارد ، لاسيما وأن هذا المعنى يتأسس عليه ببعض آيات القرآن الكريم وهى حجة لغوية قاطعة ، قال تعالى : «الله بصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس» ^(١) وقال سبحانه : «الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلا ...» ^(٢) وقال جل شأنه : «ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده ..» ^(٣) . فهذه الآيات القرآنية تدل على أن الملائكة مرسلون من عند الله ، مما يؤيد اشتقاق الكلمة من الألوكة وهى الرسالة ... أم أن «ماكدونالد» يحتاج الى دليل يؤكد أن القرآن الكريم قد نزل باللغة العربية ؟

كذلك . ما كان «ماكدونالد» أن يتساءل : إن كان العرب قبل الإسلام عندهم فكرة عن الملائكة ، لو أنه أتعب نفسه قليلا فى التعرف على تاريخ الجاهليين ، وتاريخ الأديان فى الجزيرة العربية قبل الإسلام ، ذلك التاريخ الذى اعترف به وسجله مستشرقون مثل «ماكدونالد» أكدوا أن العرب فى الجاهلية كان بعضهم يعتقد أن الملائكة بنات الله ، حيث تصوروا أن الله أصهر إلى الجن وأن الملائكة هم بناته منهم ، وأن من العرب من كانوا ينقربون إلى الله بالملائكة استشفاعا بهم ، لأنهم بناته ولهن لديه حظوة . وبعض العرب كانوا يعتقدون أن اللآلئ والعزى ومناة ، رموز وهياكل مادية

(١) الحج : ٥٧ . (٢) فاطر : ١ . (٣) النحل : ٢ .

من الأرض للملائكة الذين هم في السماء ، فيعظمونها ويقومون بواجبات العبادة نحوها ، ويدبحون لها على هذا الاعتبار .

والآيات القرآنية التي تؤكد معرفة العرب للملائكة واعتقادهم بوجودهم وبأنهم رسل من عند الله آيات كثيرة نسوق منها قوله تعالى : « وقالوا لولا نزل عليه ملك »^(١) وقال سبحانه : « وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا »^(٢) .

والآيات القرآنية الدالة على اعتقاد العرب بأن الملائكة بنات الله ، وأن بعضهم كانوا يستشفعون بالملائكة عند الله وأن بعضهم كان يعبد الملائكة عبادة كاملة كثيرة ومن هذه الآيات قوله تعالى : « فاستفتهم الربك البنات ولهم البنون ، أم خلقنا الملائكة إناثا وهم شاهدون »^(٣) وقوله تعالى : « أنأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثا إنكم لتقولون قولا عظيما »^(٤) وقوله تعالى : « .. وكم من ملك في السموات لا تنفى شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ، إن الذين يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى »^(٥) .

لعل هذه الآيات تقنع «ماكدونالد» وأمثاله بأن الظن لايفنى من الحق شيئا ، ولعل ذلك يقنعه بأن الرسول ﷺ عند ما تحدث عن الملائكة لم يكن يفسر من عنده ، وإنما هي وحى أوحاه الله إليه ، هذا إن كان «ماكدونالد» وأمثاله ، يقتنعون أو يرجعون إلى الحق والصواب .

كذلك ضل «ماكدونالد» حين زعم أن لوازم السجع حملت الرسول ﷺ على وصف الله سبحانه بعدة صفات يتكرر ذكرها في القرآن ... فإن لهذا الزعم معنى واحداً عندي هو أن «ماكدونالد» لايعرف السجع ولا لوازمه ، ولايفرق في الأساليب العربية بين مسجوعها وغير مسجوعها .

(١) سورة الأنعام : ٨ . (٢) سورة الفرقان : ٧ . (٣) سورة الصافات : ١٤٩ - ١٥٠ .

(٤) الإسراء : ٩٠ . (٥) النجم : ٢٦ - ٢٧ .

ولو ذهبت أرد كل فرية مما زعم «ماكدونالد» لتحدثت في بسائط وبدائه لاتغيب عن عاقل أو عارف بأوليات الإسلام وأوليات اللغة العربية ، فضلا عن متعالم مغرور يتصدى للحديث عما لايعرف .

أما «جب» فان دعاواه الباطلة في تأثر محمد ﷺ بضرورات الظروف الخارجية عنه المحيطة به ، أو زعمه بأن الرسول ﷺ قد استجاب لهذه المؤثرات استجابة ظهرت آثارها في حياته وفي قرآنه وفي كفاحه ، مثل هذه الدعاوى ليس لها إلا أن تنهاوى غير قادرة على النهوض لعجزها في الاستناد إلى دليل أوهى دليل ، وليس الرد على مثل هذه المزاعم التافهة بمجد ولامن أمام هذا الانغلاق الفكرى والتعصب المقيت ، المعنى عن الحق وعن مجربات التاريخ .

كذلك فإن ماهدى به «جب» من أن معارضة أهل مكة للرسول ﷺ لم تكن من أجل دينه ، وإنما عارضوه من أجل التنافس على الزعامة السياسية . ولو كان «لجب» أدنى علم بالتواتر من تاريخ الرسول ﷺ وهو في مكة . لعلم أن أهل مكة أنفسهم عرضوا عليه ﷺ في زمن باكر من دعوته الناس إلى الإسلام أن يكف عن دعوته ، وأن يجمعوا له المال ، ويهيئوا له أسباب الزعامة والرياسة فرفض قائلا كلمته المشهورة : «... والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر أو أهلك دونه ما تركته ...»

أما كلام المستشرق : هـ . ج . ويلز : فان مافيه من الخطأ والتجنى مالم يسغ حتى في عقول غير المسلمين من المستشرقين والحاقدين على الإسلام ، فلا ندرى من أين جاء : هـ . ج . ويلز بأن النبي ﷺ كان له ولد اسمه عبد مناف أى الخادم الرب المكي متاف ، مع أن أسماء أولاده الذكور معروف مشهور لا يحتاج من هـ . ج . ويلز إلى بحوث وتحقيقات وموضوعات - كما يزعم أغلب المستشرقين فيما يكتبون وهم : عبد الله والقاسم وإبراهيم ، إلا اذا أراد هـ . ج . ويلز أن يغير اسم عبد الله فيجعله عبد مناف . هذا شئ ينحسه وحده ، ولكنه في الوقت نفسه لن يغير من التاريخ المعروف قليلا ولا كثيرا .

كذلك زعمه بأن الرسول صلى الله عليه وسلم رأى الكنائس المسيحية في سوريا . ان لنا أن نقول : متى ذهب الرسول ﷺ إلى سوريا ؟ وكم كان عمره آنذاك ! أنهى رحلته مع عمه أبي طالب تلك الرحلة التجارية التي ما تجاوزت بصرى !

إن اتهامات هذا المستشرق لتدل على حرصه الشديد على التفضيل والخذاع - خداع من يقرأون له من أبناء جنسه - أما القراء المسلمون فليس منهم واحد لا يعرف أن الرسول ﷺ لا يقول الشعر ولا ينغى له ، حينما يسمعون كلام هـ . ج . ويلز حينما يصف الرسول ﷺ بأنه شاعر غير مجيد ، أما ادعاؤه بأن الرسول ﷺ له قوة تصويرية هائلة وإن كانت عرجونية على طريقة العرب ، ولها أغلب مزايا البدوى وأهم نقائصه فهي كلمات تقطر حقدا ومرارة ولا تستحق بمجرد التعليق عليها ، ويكفيه من عمله أنه يصدر حكما عاما على العرب أجمعين وعلى البدو أجمعين مع التسليم لدى الجميع بأن تلك الأحكام العامة الشاملة لها من الدلالات على عقلية صاحبها ، وتصوراته ما يخرجها عن دائرة العقلاء أصلا .

ثم نحب قبل أن ينتهى هذا الفصل أن نطرح تساؤلا على هؤلاء المجدفين القائلين بغير علم ، الزاعمين الواهين بغير دليل أو برهان ، نحب أن نتساءل قائلين : لماذا نال القرآن الكريم كل هذا التحامل وكل هذه الأباطيل ؟

أهذا التحامل صلة بما حققه المسلمون من انتصارات - - بتسكهم بهذا القرآن - وعملهم بمقتضاه على فترات غير قليلة من التاريخ ؟

أبعد وصول جيوش المسلمين الى أوروبا حاملة راية : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ترفرف بالعدل والتسامح على ربوع الأندلس كله ؟ أيعد ذلك من الأسباب التي حملت المستشرقين على التهجيم على القرآن الكريم صانع الرجال والأبطال ؟

أم نعد النظرة الفاحصة التي قارن بها بعض المنصفين من غير المسلمين

بين القرآن الكريم والتوراة والإنجيل التي يأبدهم ، هي المحرك لهذه الأحقاد والمثيرة لهذه التهجمات والمحرّكة لكل هذه التشويهات ؟

أم أن روح الحروب الصليبية العمياء لا تزال تسيطر على عقول هؤلاء وتطمس قلوبهم فينفثوا سموم أحقادهم تهجمات واتهامات ؟

أم أن الخوف من أن يعود المسلمون إلى كتابهم الكريم يستلهمونه حلول قضاياهم ومشكلاتهم بعد هذه الیقظة النسبية التي تطوف بكثير من بلدان العالم الإسلامي الآن ، قد أذهلتهم عن الحق وعن الصواب ، فأخذوا يقلبون الحق باطلا ، ويشوهون التيأد ماوسعهم التشويه خشية أن يكون المصباح الذي يضئ للمسلمين طريق صحتهم ورشادهم ؟ أم هو مخطط سياسى على مستوى عالمى تتحالف فيه القوى العسكرية مع القوى الفكرية والثقافية لتمهد لغزو الفكر الإسلامى فى صميمه وهو القرآن الكريم ؟

أم أن الصهيونية العالمية المدمرة لكل قوى الخير فى البشر ، المعادية للإسلام والقرآن منذ فجر التاريخ الاسلامى ، قد استطاعت أن تجند من هؤلاء المستشرقين من ينفثون سمومهم ويروجون باطلهم . وينشرون افتراءاتهم على أقدس مالىدى المسلمين وهو القرآن الكريم ؟

أم أن للمنفظ الذى أنعم الله به على كثير من البلاد الإسلامية - والذى أصبح اليوم مصدرا هاما للطاقة أى القوة والقدرة - صلة بهذه الحملات التشويهية التى تستهدف إقصاء أصحاب هذه المقدرات الهائلة من الطاقة ومايستجبعها من مال عن أن يجمعوا بين هذه الطاقات التى أنعم الله بها عليهم وبين المنهج الصحيح الذى يقف بهم على طريق العزة والسيادة والتمكن ، وهو القرآن الكريم ؟

محاولة تشويه السنة النبوية

وهي محاولات ضارية عميقة الجذور في تاريخ حرب الإسلام ، بل هي محاولات تستهدف ما تستهدفه حرب القرآن الكريم من عزل المسلمين عن دينهم بتشويه مصدره الأساسيين القرآن والسنة .

وهي حرب تدخل حديثا في الغزو الفكري للمسلمين ، وقد جند أعداء الإسلام لتشويه سنة النبي ﷺ ما جندوا من أقلام وكُتب ومجلات وبحوث ، وملأوا بهذا التشويه كثيرا من الكُتب والمجلات ودوائر المعارف التي تتحدث عن الإسلام وتعتبر مراجع لفكره وثقافته في نظر كثير من الباحثين والدارسين الذين لا يستطيعون قراءة الكُتب العربية ، بل إن كثيرا من هذه المراجع ترجم إلى اللغة العربية واعتبره كثير من أبناء العربية مراجع هامة عن الإسلام وفكره وتاريخه وثقافته .

ويبدو أن تطاول المستشرق «ماكدونالد» على الحديث النبوي الشريف واتهامه بحبرنا على أن نعود إلى الاستشهاد بما قال في «دائرة المعارف الإسلامية» كذلك فإنه يقول : «يحدربنا الآن أن نتكلم على الآراء التي أسندها الحديث إلى محمد ﷺ على أننا إذا حاولنا أن نجد في الحديث ما نستطيع أن نقطع بصحة نسبة إليه من الوجهة التاريخية . فإن عملنا هذا يكون لاغناء فيه على الإطلاق .

فن الواضح أن هناك أحاديث كثيرة لا يمكن أن تكون قد صدرت عنه ، كما أننا لن نستطيع أن نعرف أبدا الأحاديث التي صدرت عنه حقا»^(١) ثم يستشهد «بجولد زهر» على هذا الخلط والتشكيك فيقول : «وقد بين لنا جولد زهر أن الأحاديث ليست في الواقع إلا سجلا للجدل الديني في القرون الأولى ، ومن ثم كانت قيمتها التاريخية . لكن هذا السجل مضطرب . كثير الأغلاط التاريخية . وفيه معلومات مضللة لم تؤخذ من

(١) دائرة المعارف الإسلامية : ٢٥٥ / ٤ ط دار الشعب - القاهرة

مصادرها الأولى حتى إنه أصبح لا يصلح إلا لتكلمة المصادر الأولى الأخرى وتوضيحها .
ولهذا ينبغي أن نوجز الكلام في الأحاديث باعتبار أنها تعبر عن آراء محمد ﷺ أو آراء
المسلمين في صدر الإسلام ولا يقتصر الأمر على هذا فإن الأحاديث التي نجد فيها مشابهة لما
ورد في القرآن مشكوك فيها كذلك ،^(١) .

ثم يواصل «ماكدونالد» فيقول عن الحديث النبوي : « ثم دخل على الحديث فيما بعد
زيادات وتغييرات كثيرة . وأول هذه الزيادات ما كان خاصا بالأساطير . ثم جعلت
الأحاديث صفات الله أكثر وضوحا . وفصلت الكلام في صله بالملائكة والجن . وغما
الاعتقاد في الجن وأصبح الكلام في فعل الله مقيدا . نجد هذا كثيرا في صحيح البخاري
وبخاصة في كتاب التوحيد وبدا الخلق . ونجد فيه كذلك الكلام عن وجه الله وعن
عرشه . وعن خلق السموات والأرض . وجاء فيه أيضا أن الله ينزل الى السماء الدنيا
فيقول : من يدعوني فأستجيب له ؟ من يستغفرني فأغفر له ؟ (كتاب التوحيد من صحيح
البخاري ط القاهرة ١٣١٢ هـ ١٧٩/٤) وترد كذلك قصة آخر من يدخل الجنة من أهل
النار . وكيف يضحك الله منه (نفس المصدر ١٧٢/٤ - ١٧٣) وفي الآخرة يمسك الله
الأرض على إصبع والسموات على إصبع ثم يقول : أنا الملك أين ملوك الأرض (نفس
المصدر ١٦٧/٤ - ١٧٥) وورد الكلام عن عينيه في القرآن تارة بالمفرد (سورة الفرقان
الآية ٤٠) وتارة بالجمع . (وجاء في الحديث أنه ليس كالمسيح الدجال . وكان من جراء
الزيادة) في الحديث أيضا أن اشتد التناقض في صفات الله . ولهذا نجد حديثا يكثر وروده
وهو : إن رحمتي تغلب غضبي أو تسبقه (السابق ١٦٩/٤ - ١٧٥٠) ونجد من جهة أخرى
ذلك الحديث المخيف : هؤلاء للجنة ولا أبالي . وهؤلاء للنار ولا أبالي « (إحياء علوم
الدين للغزالي ٣٠٨/٧) .

وما نجد ملاحظته أن الأحاديث التي تكلم عن مسائل الغفران بالذات يبدو فيها
التناقض واضحا جليا . فمن ناحية نجد أن النطق بالشهادتين وقليل من العمل الصالح
يكفل للعبد الغفران . ونجد من ناحية أخرى أن تسعا وتسعين وتسعمائة وألف سيذهبون إلى

(١) دائرة المعارف الإسلامية : ٤ / ٢٥٥ ط دار الشعب - القاهرة

النار . وقد انتهى الأمر في هذا المراح قليل : إن السمعة وتسعين وتسعمائة - يكونون من بأجوج ومأجوج (البخارى ١٤٣/٣) .

ومن الواضح أننا نلمح هنا أثر الجدل الذى ثار بين الفرق في وقت متأخر ، ويبدون لنا هذا الأثر أشد وضوحا في القول بأن الأمة الناجية ستكون ممن يقطنون الشام (السابق ٧٦/٤) ولاشك في أن المقصود بهذا بنو أمية

ثم يختم « ماكدونالد » كلامه عن الأحاديث النبوية بقوله : « ونستخلص مما تقدم أنه لا شك في أن الأحاديث في ذاتها لا تعتبر أساسا يمكننا أن نبني عليه الحقائق التاريخية » (١) .

وليس « ماكدونالد » و « جولد زيهر » وحدهما في هذا التهم على السنة النبوية بقصد تشويهها والتشكيك فيها ، وإنما يشاركنها في ذلك كثير من أعداء الإسلام من المستشرقين والمبشرين والصهيونيين .

وهو نهجم لا يقوم على دليل ولا يستند إلى حجة - إلا إذا اعتبرت الأوهام والظنون من الحجج والبراهين .

ونستطيع أن نجمل الاتهامات التى وجهت إلى السنة النبوية من الأمور التالية :

الادعاء بأن هناك أحاديث كثيرة لا يمكن أن تكون قد صدرت عن النبي ﷺ .

والادعاء بأن محاولة وجود شئ في الحديث النبوى يمكن القطع بصحة نسبه إلى النبي ﷺ تاريخيا ، محاولة فاشلة .

الادعاء بأن الفرق الإسلامية عندما اختلفت في الآراء أخذ كل منها بضع نفسه الأحاديث التى يؤيد بها رأيه .

الادعاء بأن الأحاديث النبوية ليست إلا سجلا للجدل الدينى في القرون الأولى ، الأمر الذى يجعل لها من هذه الزاوية قيمة تاريخية على الرغم من أن

(١) دائرة المعارف الإسلامية : ٢٥٦ - ٢٥٧ .

هذا السجل مضطرب كثير الأغلاط التاريخية ملئ بالمعلومات المضللة التي تؤخذ من مصادرها الأولى .

وبحسبها أنها جميعا ادعاءات لم تستند إلى مايقنع من دليل أو برهان .
وبحسب الأمة الإسلامية أنها الوحيدة من بين الأمم التي عاشت على الأرض في ماضى البشر وحاضرهم التي بذلت من العناية في حفظ أسانيدها ما لم تبذله أمة أخرى ، يشهد بذلك التاريخ نفسه والمتصفون من المؤرخين .
وكان بودى لو تعرضت لهذه الادعاءات فبددتها بالحق والبرهان ، وكان بودى لو عرضت لما هذى به «ماكدونالد» وما نفس به «جولد زهر» عن أحقادهم ، ولكن المجال هنا لايتسع للردود والمناقشات - ونحن بصدد رصد مظاهر الغزو الفكرى والتيارات المعادية للإسلام - ونكتفى هنا بأن نذكر ماعلق به أحد العلماء المسلمين الأفاضل على هذه المادة التى هذى بها «ماكدونالد» في دائرة المعارف حيث يقول : «وقد عنى المسلمون بحفظ أسانيد شريعتهم من الكتاب والسنة بما لم تكن به أمة قبلهم ، فحفظوا القرآن ورووه عن رسول الله ﷺ تواترا آية آية وكلمة كلمة وحرفا وحرفا ، حفظا في الصدور ، وإثباتا بالكتابة في المصاحف حتى رروا أوجه نطقه بلهجات القبائل ، ورووا طرق رسمه في المصحف ، وألفوا في ذلك كتباً مطولة وافية ، وحفظ المسلمون أيضا عن نبيهم كل أقواله وأفعاله وأحواله ، وهو المبلغ عن ربه والمبين لشرعه والمأمور بإقامة دينه : وكل أقواله وأفعاله بيان للقرآن ، وهو الرسول المعصوم والأسوة الحسنة ، قال تعالى : «وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى» (٥٣ : ٣ ، ٤) ، وقال تعالى : «وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون» ١٦ : ٤٤ ، وقال أيضا : لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة (٣٣ : ٢١) وكان عبد الله بن عمرو بن العاص يكتب كل شئ يسمعه من رسول الله ﷺ فنهته قريش فذكر للرسول ﷺ فقال : اكتب فوالذى نفسى بيده ماخرج منى إلا حق) ففهم المسلمون من كل هذا أنه يجب عليهم أن يحفظوا عن رسولهم كل شئ ، وقد فعلوا ، وأدوا الأمانة

على وجهها - ورووا الأحاديث عنه بعضها متواتر إما لفظا ومعنى ، وإما معنى فقط ، وبعضها يعرف بالأحاديث الصحيحة الثابتة مما يسمى الحديث الصحيح والحديث الحسن ، ولم يحتجوا في دينهم بغير هذه الأنواع التي لا يعارض فيها إلا جاحد أو مكابر...^(١)

ولعل في بعض ذلك رد على «جولد زيهر» و«ماكدونالد» وأمثالها من الحاقدين على الإسلام الراغبين في تشويه مصدريه الأساسين القرآن الكريم والسنة النبوية .

وإن السنة النبوية المطهرة هي المفتاح الحقيقي الوحيد لفهم القرآن الكريم ، بل هي مفتاح الحضارة الإسلامية منذ أرسى رسول الله ﷺ أسس هذه الحضارة وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

وإن العمل بمقتضى السنة النبوية هو المحافظة الحقيقية على كيان الإسلام نفسه وهو في الوقت نفسه إحياء لحضارة الإسلام التي شملت كل مظهر من مظاهر الحياة الإنسانية الراشدة ، وعالجت كل مشكلة تعترض سير الإنسانية نحو رشدتها وهداها .

وان إهمال العمل بالسنة النبوية أو التساهل في شيء منها زلزلة لكيان الإسلام وتقويض لصرح حضارته . وليس لأعداء الإسلام في الحاضر من هدف أهم ولا أكبر من تشويه هذه السنة النبوية وتشكيك المسلمين فيها أو في جدوى التمسك بها ، عن طريق تكذيبها أو رميها بالتناقض والتعارض أو التهوين من شأن العمل بها .

وإن آفة هذا العصر الذي نعيشه أن بعض الناس فيه يتعاملون بأن ينكروا صحة الأحاديث النبوية أكثرها جريا - غير واع ولا مدرك للنتائج - وراء ما رووه أعداء الإسلام وما زوروه ، ويتبع ذلك أن بعض الناس يسوغون

(١) دائرة المعارف الإسلامية : ٢٧٤ / ٤ ...

لأنفسهم ألا يعملوا بمقتضى هذه السنة بحجج واهية وتعلات هي المرض والضعف والتعبية .

وإن أصابع أعداء الإسلام من مستشرقين وأذئاب لهم ، ومن مبشرين وضالين بضلالهم ، ومن قوى أخرى شقية ودمى ضعيفة تتحرك بتحريك هذه القوى ، إن أصابع هؤلاء جميعا تعبت وهمى تروّر وتفسد ، وتملأ نفوس السذج والتضهاء بالشك والانكار .

وما نحب أن نقوله هؤلاء الأتباع ومتبوعهم ، أولئك الذين لا يحسنون غير الإنكار والتكذيب والتشكيك ، هو أن يأتوا على ما يدعون بدليل منطقي ينفون به السنة النبوية المطهرة . فإن عجزوا - وهم لابد عاجزون - لقلنا لهم : إن أجيالا من هؤلاء المنكرين جاءت وراء أجيال ، ومجموعات من الخافدين تلتها مجموعات ، ما استطاعوا مجتمعين ولا متفرقين أن يأتوا في مجال إنكار السنة النبوية بشئ يستحق المناقشة في فترة من فترات تاريخ حقدهم الطويل .

وإذا كان الجامعون لسنة رسول ﷺ في الزمن الباكر . والجامعون لكذب الحديث النبوي الأولى ، مثل الامامين البخاري ومسلم ، قد قاموا في هذا المجال - مجال الدقة والتحري والتثبت من كل حديث ومن كل راو - بما يعد صورة فريدة من نوعها في تاريخ الإنسانية كله . لم تعرف له أمة من الأمم نظيرا في حفظها لتراثها - فإن في ذلك ما يجرس ألسنة المتقولين وما يرد كيدهم .

ويكفى للدلالة على ضخامة الجهود التي بذلت في هذا السبيل أن نشأ علم ذو قواعد وأصول هدفه الوحيد أن يبحث في متن الأحاديث وسندها ، وفي أحوال الرواة وشروطهم ، وما يوصفون به صفات الجرح أو التعديل ، وإن نظرة عابرة إلى تلك المواصفات التي اشترطت في رواية الأحاديث لتتبع الجاحد قبل غيره بأن الثقة في السنة النبوية ثقة بغير حدود .

وإذا كانت الحجج قد قامت على صحة الأحاديث النبوية فإن هؤلاء المنكرين المبلطين مطالبون بأن ينقضوا هذه الحجج أولا ، ثم يؤكدوا مزاعمهم

بأدلة وبراهين ، وما هم بمستطيعين هذا ، ولا هم بقادرين على ذلك ، وقد
غيروا في هذه المحاولات السنين وراء السنين ، وتطاول زمن الحقد بهم ففعلوا
وراحوا يتخبطون في غير هدى .

لكنها الرغبة الملحة في تشويه مصدر كبير من مصدرى الإسلام هو السنة
النبوية المطهرة ، حتى لا يواجهون من جديد بأجيال من المسلمين تحسن التحكم
بسنة الرسول ﷺ فتحسن بها الحياة وتحسن الانتصار في المعارك ، وتحسن
اقامة الحق والميزان وزرع العدل والإحسان في البشرية كلها ، وهذا أخوف
ما يخافه أعداء البشرية أعداء الإسلام . إذ به تذهب ريعهم وتضيع أرباحهم .

محاولة تشويه شخص الرسول

(صلى الله عليه وسلم)

وهي محاولات قديمة حديثة مستمرة ، يمارسها أعداء الإسلام برغبة وشوق ويرون في التهم على المعصوم ﷺ والنيل منه جزءا من خطة كبيرة تستهدف تشويه الإسلام وعزله عن حياة المسلمين بخاصة والناس بعامة ، لتحل محله الفكر الغربي والحضارة الغربية ، والشخصيات الغربية ذات الشهرة عندهم .

وفيا لسلف من البحث رأينا أعداء الإسلام وخصومه شكولا وألوانا . صهيونيين ومبشرين ومستشرقين واستعماريين ، ورأينا محاولاتهم في تشويه الإسلام تتجه بالدرجة الأولى إلى القرآن الكريم وستة المعصوم ﷺ ، ونحن هنا بصدد عدد من الأعداء يحاولون النيل من شخص الرسول ﷺ ، بقصد تنفير الناس من الإسلام وجذب بعض ضعاف المسلمين الى غير الإسلام ، لذلك يكرسون جهودهم لاختراع التهم واصطناع الأباطيل يلصقونها بالإسلام وبمحمد المعصوم ﷺ ، وهؤلاء الأعداء عدد عديد نعرفهم من لحن القول ونستدل عليهم من بحوثهم ودراساتهم التي يطنطنون بها حيناً ويطنطن لهم بها - من أسف - بعض المسلمين في أحيان كثيرة .

ولا أحب أن يفوتني في هذا المجال أن أسرد أسماء بعض هؤلاء الأعداء الخاقدين وأن أشير إلى بعض كتبهم وبحوثهم التي هاجموا فيها الإسلام ومحمد ﷺ .

وإنما يدفعني إلى ذلك رغبة شديدة في أن تتعرف أجيال المسلمين على أعداء دينهم وأعداء رسولهم ﷺ ، حتى لا ينخدعوا فيهم كما انخدع أسلافهم ، ولكي لا تكون لهؤلاء الأعداء ولا لبحوثهم تلك المكانة التي يتمتعون بها الآن .

من هؤلاء الأعداء الحاقدين على الإسلام وعلى النبي ﷺ :

- ١ - وليم موير : W. Muir في كتابه : حياة محمد .
- ٢ - هنري لامنس اليسوعي : H. Lammes في كتابه : الإسلام وقد بلغ من حقد هذا الرجل على الإسلام أن تخطب فيما يكتب إلى الحد الذي أزعج بعض المستشرقين أنفسهم .
- ٣ - ألفرد جيوم : A. Geom في كتابه : الإسلام .
- ٤ - صمويل زويمر : S. M. Zwimer في كتابه : الإسلام (تحد لعقيدة) .
- ٥ - كنيشكراج : K. Cragg في كتابه : دعوة المثلثة .
- ٦ - أ . ج . أربدي : A. J. Arbry في كتابه : الإسلام اليوم .
- ٧ - جولد زير : Goldziher في كتابه : تاريخ مذاهب التفسير الإسلامي .
- ٨ - ه . أ . ر . جب : H. A. R. Gibb في كته :
 - أ - طريق الإسلام .
 - ب - الاتجاهات الحديثة في الإسلام .
 - ج - المذهب المحمدي .
 - د - الإسلام والمجتمع الغربي .
- ٩ - أ . ج . فينسك : A. J. Wensink في كتابه : المستشرقون والإسلام .
- ١٠ - د . س . مرجليوت : D. S. Margoliuth في كته :
 - أ - محمد ومطلع الإسلام .
 - ب - التطورات المبكرة في الإسلام .
 - ج - الجامعة الإسلامية .

د - قنطرة إلى الإسلام .

١١ - ج . فون . جرونباوم G. Von. Grunbaum في

كتبه :

أ - إسلام العصور الوسطى .

ب - الإسلام .

ج - الأعياد المحمدية

د - الوحدة والتنوع في الحضارة الإسلامية .

هـ - دراسات في تاريخ الثقافة الإسلامية .

١٢ - د . ب . ماكدونالد D. B. Macdonald في

كتابه : تطور علم الكلام والفقه والنظرية الدستورية في الإسلام .

١٣ - ر . أ . نيكلمون R. A. Nicholson في كتابه :

متصوفو الإسلام .

١٤ - ر . بل : R. Bell في كتابه :

أ - أصول الإسلام في بيته المسيحية .

ب - مقدمة القرآن .

١٥ - آرثر جيفري : Arther. Jaffry في كتابه : مصادر تاريخ

القرآن .

١٦ - يوسف شاخت : J. Shacht في كتابه : أصول الفقه

الإسلامي .

١٧ - آرنولد توينبي : A. Toynbee في كتابه : دراسة في

التاريخ - القسم الخاص منه بالإسلام وبمحمد ﷺ .

١٨ - فيليب هتي : P. H. Hitti - وهو مسيحي لبناني في

كتابه : تاريخ العرب . وفيه تجن عنيف على شخص الرسول الكريم

صلى الله عليه وسلم .

- ١٩ - مجيد خورى : مسيحى عراقى ، فى كتابه : الحزب والسلام فى الإسلام
٢٠ - إبراهيم كاش : فى كتابه : اليهودية فى الإسلام .
٢١ - إدوارد فرمان : E. Ferman فى كتابه : تاريخ المسلمين وفتوحاتهم .
٢٢ - ج . س . آرثر : G.S. Arther فى كتابه : العناصر الصوفية فى محمد .
٢٣ - ر . بلاشير : R. Blacher فى كتابه : مقدمة القرآن .
٢٤ - سنوك هورج رونجه : Snouk. Horgronje فى كتابه : الإسلام .

ولو أردنا الإحصاء أو الاستقصاء لما وسعتنا صفحات هذا البحث .

وكل هؤلاء حاولوا تشويه الإسلام ونالوا من شخص الرسول ﷺ فيما كتبوا ، وافتاتوا على الحق وموهوا وملأوا الدنيا ضجيجا بأصوات الباطل وهراء الجاهلين وسوم الحاقدين ، وغيرهم ممن شاركهم هذا العمل الخبيث كثيرون .

ويمكن أن نضيف إلى هؤلاء وأترابهم عددا غير قليل من المسلمين - مع بالغ الأسف - الذين سخروا أقلامهم وكتبهم لترديد مايقوله هؤلاء الأعداء جريا وراء السراب الخادع من مجد ينالون أو مكانة ، أو رعاية لحق الأستاذ على تلميذه الضائع العليل .

فاذا أضفنا الى هؤلاء وأولئك عددا آخر من الملاحدة والمارقين ، والملايين والصهيونيين ، رأيناكم نشوه صورة الاسلام وصورة الرسول الكريم ﷺ .

وإذا وضعنا فى الاعتبار أن عدداً كبيراً من المستعمرين وأتباعهم وأذنانهم أصحاب مصالح مباشرة فى حرب الإسلام وتشويهه ، أدركنا عمق المحاولات وتعدد أنواع القائمين عليها .

وإذا لحظنا أن الصهيونية العالمية تخطط منذ زمان غير قصير لحرب الأديان جميعا وبخاصة الإسلام . وتعمل جاهدة على تحطيم القيم الخلقية وبخاصة القيم الخلقية الإسلامية ، عرفنا إلى أى مدى يتعرض الإسلام لحمولات التشويه ، وإلى أى مدى يفتري على المعصوم صلى الله عليه وسلم .

وبعد : فإثقل على النفس من نقل تلك التهم الباطلة التي وجهت إلى محمد ﷺ ، ولكن ضرورة البحث تتطلب مني بعض الإشارات الدالة .
وأهم ما هاجموا به رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو تكذيبه في الوحي الذي أوحاه الله إليه ، وترتب على هذا التكذيب دعواهم الباطلة بأن محمداً صلى الله عليه وسلم قد ألف القرآن الكريم من عند نفسه .

ولقد تخبط هؤلاء الأعداء في الحديث عن الوحي إلى الحد الذي يدعو إلى الدهشة ويثير الحيرة والتساؤل .

هذا هو نولده يقول عن الوحي : «إن سبب الوحي النازل على محمد (صلى الله عليه وسلم) والدعوة التي قام بها هو ما كان يتأبه من داء الصرع»^(١) .

وهذا هو كارل بروكلمان - المستشرق المخطوط بين المسلمين - يقول عن محمد صلى الله عليه وسلم : «استخدم محمد في دعوته أساليب الكاهن ، كما عزا - على غزارة ... أحوال غيبوته وما يصدر في هذه الأحوال من تصريحاته إلى رفيق ذكر فيما بعد أنه الملك جبريل - واعتقد أنه رسول الله إليه»^(٢) .

ثم يقول في موضع آخر من كتابه : تاريخ الأدب العربي : «كان النبي (صلى الله عليه وسلم) في أقدم مراحل دعوته الدينية يطلق ما يدور بخنده وهو صادق الاستفراق والغيوبة في جمل مؤثرة يقلب عليها التقطع والإيجاز وتأخذ طابع سجع الكهان ، واحتفظ النبي (صلى الله عليه وسلم) أيضاً بهذا القالب

(١) لوتروب ستودارد : حاضر العلم الإسلامي : ٣٤/١ ترجمة نوبيس .

(٢) كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربي : ١/ ١٣٤ . ترجمة عبد الحليم النجار .

الكلامى بعد ذلك حينما أخذ يتقن باطراد من طبيعة الغائب المستغرق إلى طبيعة الداعية الواعظ ، فكان يتلو في جمل أطول من الأولى تحذيراته وتعليقاته التي حفلت كثيراً بالقصص من العهد القديم ومن المجادة»^(١)

وأما مارجليوث : - وهو أخصب المستشرقين وأشدّهم بغضاً لمحمد ، وهو الذى اعتمد عليه الدكتور طه حسين في النظرية الساقطة بأن شعر الجاهلية موضوع بعد الإسلام - فإنه يقول : أن محمداً (صلى الله عليه وسلم) كان يمارس الشعوذة ، وكانت له مجالس سرية أشبه بالمحافل الماسونية ، وعلامات يتعارف بها مع أصحابه ، وكانوا يرخون عذبة العامة فوق مناكيبهم»^(٢) .

ومما هاجم به : هـ. ج. ويلز : الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم قوله : «ببدا أن من الضروري أن نذكر حادثة واحدة محيرة في حياة النبي الجديد ، يقول عنها السير ماكس سيكس : (أنها تثبت أنه كان عربياً صميماً) فإنه بعد كل إصراره على وحدانية الله ، قد داخله التردد ، فأتى ساحة الكعبة وأعلن أن أرباب وريث مكة قد تكون قبل كل شيء حقيقة ، وقد تكون فصيلة من القديسين ممن لهم قوة الشفاعة ، فلقى تراجعه حمية وحماة ولكنه لم يكذب قوله حتى أخذه الندم ، وذلك بدل على أن الخوف من الله كان ولا جرم يملأ قلبه ، فما بدر منه في الأمانة دليل على أنه أمين ، ومن ثم فعل كل ما في وسعه لإصلاح ما فرط منه ، فقال : إن الشيطان تلبس لسانه ، ثم أخذ يسب عبادة الأصنام بقوة وعزم مجددين ، وبذلك تجدد الكفاح ضد الآلهة العتيقة بعد فترة سلام وجيزة على صورة أشد وأعنف ودون أى أمل آخر في الصلح»^(٣) .

(١) السابق : ١٣٧ .

(٢) لوثرروب ستوارد : حاضر العالم الإسلامى : ترجمة عجاج نويض وتعليق المرحوم : شكيب أرسلان .

(٣) هـ. ج. ويلز : معالم تاريخ الإنسانية : ٦٢٩/٣ - ٦٣٠ .

وهذا لامنس اليسوعى يقول عن الرسول صلى الله عليه وسلم : «إن محمداً كان كثير الطعام والشره مسترسلاً في اللذات البدنية» وزعم أن النبي (صلى الله عليه وسلم) مات بالبطنة .

ولا أجد أروع في فضح لامنس وإظهار نواياه الخبيثة وأحقاده الدفينة من قول مستشرق آخر فيه - وهو المستشرق «رينه» : «أن لامنس اليسوعى في أول كتابه عن محمد صاح متأوهاً من كون القرآن جاء وصرف العرب عن حلاوة الإنجيل التي كانوا بدأوا يذوقونها ، ولم يقدر أن يغفر للقرآن ذنب إدخاله في الإسلام ثلاثمائة مليون نسمة من جميع أجناس البشر ، واستبابه إلى يوم الناس هذا ينمو ويتشرب في أفريقية وآسية بمراى ومسمع من المبشرين المسيحيين فلذلك زعم لامنس أن يشنها على الإسلام غارة شعواء ويحمل عليه حملة صليبية يكون هو بطرسها الناسك على أمل أن يصرع الإسلام إلا أن حالة عقلية كهذه - كما يقول رينيه - لا تلتئم مع بحث علمى مبنى على تجرد محض من الهوى ومتره عن البغض»^(١) .

هكذا يكتبون عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وهكذا يحاولون تشويه شخصيته باتهامه بهذه التهم الحاقدة الكاذبة ، وكل ما يقولون باطل باطل ، ولا نحتاج هنا إلى أن نرد عليه ، فقد توفر على الرد عليه بعض علماء المسلمين ، وبعض المستشرقين أنفسهم .

وليس فيما قالوه عن النبي صلى الله عليه وسلم من تهم وأباطيل شيء يستطيع أن يقف على قدمين فضلاً عن أن يواجه بنقد ورد وإقناع .

وليس من شأننا في هذا البحث الذى نرصد فيه مظاهر الغزو الفكرى والتيارات المعادية للإسلام ومؤسساته ووسائله أن نغنى بالردود والمناقشات. لهذه الأباطيل ، وانما يكفيننا هنا أن نكشف عن مخططات الغزو الفكرى للمسلمين ، وتيارات العداء التي تستهدف تشويه صورة الإسلام المشرقة المضيئة

(١) السابق : ١ / ٣٦ .

القادرة على نقل الناس كل الناس من الضلال إلى الهدى ، وتشويه شخص
الرسول صلى الله عليه وسلم الذى استطاع أن يصل بدعوته فى زمن قصير إلى
أسماع كبرى وقبصر ، والذى استطاع برجاله الذين رباهم على الإسلام أن
يصل بهذا الدين إلى أوسع مدى ينتشر فيه فى أقل من قرن واحد من الزمان .

والهدف واضح وهو عزل المسلمين اليوم عن هذا الدين الإيماني الممتد فى
البشرية بأحسن مبدأ وأشمل منهج وأكمل نظام ، حتى لا تعود للمسلمين
المكانة التى كانت لهم فى الماضى والتى يمكن أن تكون لهم فى الحاضر
والمستقبل .

محاولة تشويه التاريخ الإسلامى

إن محاولة غزو المسلمين عن طريق تشويه التاريخ الإسلامى عمل على جانب كبير من الأهمية لدى أعداء الإسلام وخصومه يحنون له من الطاقات والإمكانات ما يمكن أن تنصروه وما لا يخطر لنا على بال .

إن حشداً هائلاً من العلماء والمتعلمين ، وأصحاب دور النشر والصحف في هذا العصر الذى نعيشه يقفون دائماً على أتم الاستعداد للقيام بأعمال التشويه والتريف لكثير من حقائق التاريخ الإسلامى فند عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وإلى الآن مروراً بمختلف العصور التاريخية للمسلمين .

ولدى الآن سطور قليلة تدل على رغبتهم القوية في تشويه التاريخ الإسلامى ، جمعها من كتاب : معالم تاريخ الإنسانية ل : هـ . ج . ويلز - ذلك الكتاب الذى لقي من القبول في العالمين العربى والإسلامى ما لم يلقه كتاب آخر ، كما كان من حظ مؤلفه أن أعجب به عدد غير قليل من الكتاب الأدباء ، يقول ويلز : « ولا يقوم أقل شك في أنه إن كان محمد هو ذهن الإسلام البدائى وخياله ، فقد كان أبو بكر ضميره وإرادته ، ففي كل حياتهما معاً كان محمد هو الذى يقول الشيء فيؤمن به أبو بكر أوثق الإيمان وأمتنه ، فإذا تردد محمد أسنده أبو بكر »^(١) .

وليس خفياً ما يحاوله هـ . ج . ويلز من تشويه لتاريخ الرسول صلى الله عليه وسلم وتاريخ الصديق أبى بكر رضى الله عنه .

ولم يقف المؤلف عند هذا الحد ، وإنما تناول أمير المؤمنين عمر بن

(١) هـ . ج . ويلز : معالم تاريخ الإنسانية : ٢ / ٦٤٣ ترجمة عبد العزيز جاويد القاهرة ١٩٤٧ م .

الخطاب في أسلوب خبيث لا ينطلي على غير التضاء فهو يمدح خالداً ليدم عمر رضى الله عنها ، يقول : «ويرز اسم خالد (ابن الوليد) أركى نجم وأسطعه في مجموعة من القواد المسلمين المقتدرين الأتقياء ، فحيثما حل قائد الجيش انتصر ، ولما أن خلعتة غيرة الخليفة عمر بن الخطاب ظلماً منه لا يغتفر ، لم يحدث أية ضجة ، بل خدم الله في سرور وإخلاص تحت إمرة الذين كان كبيراً عليهم»^(١) .

وعن خالد نفسه ينقل ويلز عن : «سكوارتز» في تاريخ العالم (هلموت) أن حياة ذلك البطل الخاصة كانت تنطوى على وصمة ، فإنه ارتكب الفسق وهي خطيئة في مجتمع يبيع كثرة الزوجات»^(٢) .

هكذا يحاول ويلز أن يشوه تاريخ عمر وتاريخ خالد وتاريخ الإسلام كله ، أن كلمته : «ارتكب الفسق في مجتمع يبيع كثرة الزوجات» كلمة خبيثة تشوه خالداً رضى الله عنه ، لأنها توحى بأن الفسق ليس خطيئة في مجتمع لا يبيع تعدد الزوجات ، مع أن الفسق خطيئة في كل مجتمع ، فضلاً عن حرمة في كل دين .

ويعود المؤلف ليجمع بين أبي بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم فيقول : «فإن أبا بكر الخليفة الأول انتخب في المدينة للخلافة بطريقة تصابجية غير رسمية ، وهكذا كان شأن عمر بن الخطاب وعثمان الخليفة الثالث ، على أن ثلاثهم كانوا مكيين من أسر عريقة ، ولم يكونوا من رجال المدينة ، ومع أن أبا بكر وعمر كانا رجلى بساطة متشفة مطلقة واستقامة فقد كان عثمان أدنى منها مرتبة وهو رجل من طبقة المترفين ومن طراز أصحاب الثياب الحريرية التي لم يكن الغزو لديها من أجل الله ، بل من أجل بلاد العرب ، وبخاصة من أجل مكة بلاد العرب ، وبالأخص لنفسه وللمكيين وعائلته بنى أمية ،

(١) السابق : ٣ / ٦٤٣ .

(٢) السابق : ٣ / ٦٤٣ .

كان رجلاً ذا مكانة ، نصب نفسه لخدمة وطنه وبلدته وقومه ، ولم يسلم مبكراً كما فعل سلفاه ، وانضم إلى النبي لأسباب سياسية في عملية أخذ وعطاء عادلة ، وبتوليته يكف الخليفة عن أن يكون رجلاً عجيباً له ذاتية مدهشة متوقدة ، ويصبح ملكاً شريكاً لكثير من الملوك الشرقيين من قبل ومن بعد ، ملكاً لا بأس به إذا قيس بالمعايير الشرقية حتى ذلك الحين ولكنه لا يزيد على ذلك شيئاً^(١) .

وليس تضليل هـ. ج. ويلز في حديثه عن الخليفة الثالث رضى الله عنه خافياً على أحد له أدنى علم بالتاريخ ، فلم ينتخب أبو بكر رضى الله عنه بطريقة تصاحبة ولا عمر انتخب بها ولا عثمان رضى الله عنهم .

ولم يكن عثمان من طراز أصحاب الثياب الحريرية الذين لا يجاهدون من أجل الله وإنما من أجل البلاد والقوميات والقبائل ، وليس صحيحاً أن عثمان أسلم بعد إسلام عمر ، ولا أنه انضم إلى النبي لأسباب سياسية تقوم على الأخذ والعطاء ، ولم يكن رضى الله عنه ملكاً ولا شبه ملك هكذا يتحدث «ويلز» عن تاريخ المسلمين .

وحديث ويلز عن الإسلام نفسه ينفث خطراً وسمّاً وحقدّاً وضيقاً بانتشار الإسلام بهذه السرعة في الناس ، حيث يعزو سرعة انتشاره إلى أسباب عجيبة لا يقوم عليها دليل ولا برهان ولا يسندھا منطق ، يقول في ذلك ويلز : «فإن الإسلام ساد لأنه خير نظام اجتماعي وسياسي استطاعت الأيام تقديمه ، وهو قد انتشر لأنه كان يجد في كل مكان شعباً بليدة سياسياً ، تسلب وتظلم وتخوف ولا تعلم ولا تنظم ، كذلك وجد حكومات أنانية سقيمة لا اتصال بينها وبين أي شعب أصالة ...»^(٢) .

وإن العناوين التي يختارها هؤلاء الباحثون فيما يكتبون لتدل بحق على

(١) السابق : ٣ / ٦٥٠ - ٦٥١ .

(٢) السابق : ٣ / ٦٤٥ .

حقدهم وتعصيم ، وعلى سبيل المثال فإن هـ. ج. ويلز عندما يتحدث عن تراجع بعض الحكام العباسيين عن الإسلام ، وبالتالي يلحظ ضعف هؤلاء الحكام وانحلال حكمهم أو ملكهم ، يختار ويلز لذلك عنواناً يقطر حقداً وبطلاناً إذ يقول عن ذلك : « انحلال قوة الإسلام في ظل العباسيين »^(١) وأبسط الناس ذكاء وإدراكاً يعرفون أن الانحلال ليس للإسلام وإنما لبعض الحكام المسلمين ، والفرق بين التعبيرين شاسع . وإلا لجاز لنا - قياساً على هذا الفهم العاجز القاصر - أن نقول عن المسيحية - وهي شريعة من عند الله حرفها بعض الناس فخرجوا بها عما أنزله الله على عبده ورسوله المسيح عيسى بن مريم . جاز لنا أن نقول : « إشرارك المسيحية أو كفر المسيحية أو ضلال المسيحية » وهذا خطأ كخطأ « ويلز » والصواب أن يقال : إشرارك بعض المسيحيين أو كفرهم أو ضلالهم ، ونعود فنقول : إن الفرق بين التعبيرين لا يحتاج إلى ذكاء شديد ولا إلى علم غزير يضيفه بعض الناس على « ويلز » .

هذه لمحة خاطفة عن محاولة أعداء الإسلام تشويه تاريخ المسلمين في العصور الباكورة من تاريخ الإسلام . نقلتها عن كتاب واحد من بين عشرات الكتب ومئات البحوث التي أشرت إليها في مستهل هذا الفصل من البحث .

وهي لمحة دالة أكبر الدلالة على ما يضمّر هؤلاء الأعداء للإسلام من حقد وكراهية وما يدبرون من مكائد وما يرغبون فيه من شن أعنف الحملات التخريبية على الإسلام .

فإذا ما انتقلنا إلى الحديث عن الفترة الزمنية التي عنيّا بأن نرصدها في هذا البحث ، وهي ما يقرب من قرنين قبل هذا الزمن الذي نعيشه الآن ١٣٩٦ هـ .

أهم ما يعيننا أن نتحدث عنه في مجال تشويه التاريخ الخاص بالمسلمين هو تاريخ الدولة العثمانية ، وبعض البلدان الإسلامية الأخرى - كفارس

(١) السابق : ٦٥٨ / ٣ .

وأفغانستان ومصر والشمال الأفريقي المسلم ، والسودان وشبه الجزيرة العربية والعراق وسوريا وفلسطين ، وشرق الأردن ، التي كانت في ركب الدولة العثمانية أو تابعة لها .

هذه الدولة العثمانية التي حققت انتصارات للمسلمين على الأوروبيين . وبسطت سلطانها ونفوذها على معظم بلدان العالم الإسلامي وعلى جزء كبير من أوربا ، وكانت شجياً في حلق أعداء الإسلام - فهي بغير شك لم تكن الدولة الإسلامية الملتزمة بكل ما جاء به الإسلام من نظم سياسية واقتصادية واجتماعية ، شأنها في ذلك شأن أي دولة قامت بين المسلمين ، لها حسناتها وفيها سيئاتها ، وهي - كذلك لا ينبغي أن تحسب كل أعمالها وسياساتها على أنها الخط الإسلامي لسلك الدولة في الإسلام - كما يحاول الأعداء دائماً أن يربطوا بين هذا وذاك - إذ من الخطأ الكبير - كما أسلفنا غير مرة - أن تحسب أخطاء المسلمين على الإسلام نفسه .

ومن الحقائق الأولية التي يعرفها أي دارس لتاريخ الدولة العثمانية منذ نشأتها حوالى منتصف القرن السابع الهجرى - الثالث عشر الميلادى - وإلى أن تحالفت ضدها دول أوروبا أغلبها على إسقاطها والقضاء عليها ، هي أن هذه الدولة استطاعت أن تلم شعث المسلمين وأن تجعل منهم قوة ، بيد أن الخلافات والصراعات قد دبّت بين حكامهم فترات غير قصيرة من الزمان ، ومن عجب أن كل عمل يخالف للإسلام قام به بعض حكام هذه الدولة لقي ترحيباً شديداً من أعداء الأمة الإسلامية مبشرين ومستشرقين ، وأن كل عمل موافق لمنهج الإسلام في الحياة قام به بعض هؤلاء الحكام قد لقي من هؤلاء الأعداء تهجماً ونقداً مراً ، وذلك شأن أعداء الإسلام مع المسلمين ، يدركون تماماً أن تمسك المسلمين بمنهج الإسلام خطر أى خطر عليهم وعلى مخططاتهم المعادية للإسلام ، كما يدركون أن ابتعاد المسلمين عن منهج الإسلام في الحياة وانفلاتهم من آدبه وأخلاقه هو الأمن والراحة والاستقرار لهؤلاء الأعداء .

وعلى سبيل المثال : فإن الدولة العثمانية في زمن مبكر ، فكرت في أن تضع قانوناً تعالج فيه شئوناً إدارية ثلاثة هي : -

١ - السكة (العملة أو النقد) .

٢ - اللباس والزى .

٣ - الجيش .

وهي من الأمور الجزئية التفصيلية التي يجوز للحاكم في الإسلام أن يتخذ لها من النظم ما يلائمها بحيث لا يخالف شيئاً من الكتاب والسنة ، على الرغم من أن هذه المحاولات في وضع هذه القوانين لا يدل أبداً على خروج الدولة عن مصدرى الشريعة الأساسيين وهما الكتاب والسنة ، إلا أن بعض المستشرقين يرون في هذه المحاولة فرصة يتهمون فيها على الكتاب والسنة . ويزعمون أنها غير كافية لتنظيم الحياة ولا شاملين لمطالباتها ، فيقولون بذلك الأمور ، وبدلاً من أن يوجهوا النقد لأسلوب التطبيق إذا بهم يوجهونه إلى الشريعة الإسلامية نفسها .

وهذا هو المستشرق : كارل بروكلمان - وهو مَنْ هو في نظر الباحثين والدارسين مسلمين وغير مسلمين - يقول في كتابه «تاريخ الشعوب الإسلامية» ما يعد تهجماً على القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، يقول : «وكان المفروض في قانون المملكة الشرعى أن يستند - نظرياً على الأقل - إلى التشريع الإلهي الذي جاء به القرآن ، وإلى السنة كما تُصورها أحاديث النبي (صلى الله عليه وسلم) الشفهية ليس غير ومهما يكن من شيء ، فلما كان هذان المصدران أنفسهما لا يحيطان بمشكلات الحياة كلها ، هذه الحياة التي تعقدت أكثر من ذي قبل ، والتي انتهت إلى أن تنهض على أسس اقتصادية تغاير الأسس القديمة بالكلية ، فقد تعين على الدولة أن تعترف - علاوة على الشرع الالهى - بقانون جديد يقوم على دعائم زمنية خالصة ، ذلك بأن هذا

الشرع الإلهي كان حتى ذلك الوقت أصلب من أن يمرّز أحد على تكييفه وفقاً للأحوال الجديدة ... وهكذا نشأ القانون عند العثمانيين^(١) .

وهكذا ينتهز بروكلمان هذه الفرصة ليهاجم على الإسلام وبتهمة بالجمود ويرحب بهذا الجمود ، ويفترى على الله الكذب حين يزعم أن الشرع الإلهي غير مستوعب لمشكلات الحياة .

ولم يكن بروكلمان وحده في هذا التهجم والاثام ، وإنما يشاركه في ذلك كثير من الأعداء مبشرين ومستشرقين .

ولا تستطيع أوروبا أن ترى الدولة العثمانية متصرة في حروبها حتى تتجمع وتتحالف لتقف في وجه هذه الانتصارات ، فما إن تتوالى انتصارات الدولة العثمانية في القرن الثامن الهجري حتى يعلن البابا يونيفاسيوس التاسع حرباً صليبية ضد المسلمين بمحمد لها ويدعو إليها ، فيجتمع جيش كبير قوامه عساكر البلدان الأوروبية الغربية بقيادة «سيجموند» ملك المجر ، غير أن جيوش بايزيد استطاعت أن ترد هذا الكيد وأن تقضى على هذا الجيش عند نيقوبوليس في السابع والعشرين من أيلول سنة ١٣٩٦ م .

وقد اتخذ أعداء الإسلام من التهجم والحقد على الدولة العثمانية فرصة للتهجم على الإسلام نفسه ، وفرصة لمؤاخذة الإسلام نفسه على كل خطأ ارتكبه حاكم مسلم ، حتى عندما يهمل العثمانيون التبحر في العلم والبحث والاختراع ، ويكتفون بالاتباع والتقليد ، بعد الأعداء هذا الخطأ خطأ في الإسلام نفسه ، هذا ما يردده كارل بروكلمان - الحجة الثقة في نظر كثيرين من المسلمين - حيث يقول : «كانت حياة العثمانيين العلمية خلواً أو تكاد من الأصالة والإبداع ، فهي تتخذ سبلها في مجارى التقليد والاتباع الثابتة ، ذلك

(١) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ٤١١ ترجمة : منير البعلبكي وآخر .

أن العلم لم يكن يعنى عند المسلم (!!!) اكتساب معرفة جديدة بل التمكن إلى أقصى حد مستطاع من المادة التى أنتجها الأجيال السالفة...^(١)

وهذا باطل ليس كمثله باطل ، فمن ذلك الذى استغنى طيبة كل مسلم وفحص نظراته إلى العلم ، حتى يخرج علينا بهذه المجازة الصارخة والافتيات الخاقد عندما يقرر أن العلم لم يكن عند المسلم اكتساب معرفة جديدة ؟ وأين يذهب بروكلمان ، بالبحوث والمكتشفات العلمية التى ابتكرتها عقول المسلمين والتى اعترف بها كثير من الأوروبيين أنفسهم ؟

ولم تزل دول أوروبا تعمل ، تتحالف سراً وجهرًا حتى استطاعت بوسائل عديدة أن تضعف الدولة العثمانية وأن تتقصر من أطرافها ، وأن تؤلب عليها مزيداً من الأعداء وأن تدخل معها فى حرب سافرة ضارية حاقدة ، ففى كل بقعة مما كان تحت نفوذ الدولة العثمانية من أوروبا أو البلدان الإسلامية التى كانت تابعة للدولة العثمانية ، عملت أوروبا على أن تثير القلاقل وتوقد الفتن ، وتساند الثورات وتغذى الخلافات ، حتى استطاعت بهذه الوسائل الخبيثة والحرب القذرة أن تقلص نفوذ الدولة العثمانية من أوروبا ومن آسيا ومن مصر ومن غيرها من البلدان التى كانت تابعة لها ، فبعض هذه البلاد التى كانت تابعة للدولة العثمانية كانت تجد التشجيع من الدول الأوروبية على الانفصال عن الدولة العثمانية ، وبعضها كانت تقتنصه إحدى دول أوروبا المستعمرة ، ونستطيع القول بأن إنجلترا وفرنسا وإيطاليا قد تقاسمت العالم العربى ، ومعظم العالم الإسلامى الذى انحسر عنه ظل الدولة العثمانية .

ثم كانت الخاتمة بتلك المؤامرة التى حيكّت لتقضى على دولة الخلافة قضاء كاملاً على يد مصطفى كمال عندما أعلنت الجمهورية سنة ١٩٢٣ م وانتخب رئيساً لها ، وقد غمرت الفرحة الأوروبيين عموماً ، وأعداء الإسلام على وجه الخصوص إذ وجدوا ثمرة غرسهم قد نضجت وحان قطافها ، من أجل هذا

(١) السابق : ٤٨٢ .

لا نجد كاتباً أوروبياً مؤرخاً أو غير مؤرخ إلا وهو يثنى على مصطفى كمال ويشيد بأعماله الجليلة .

يقول في ذلك «كارل بروكلمان» : «ووطن مصطفى كمال نفسه على أن يسير بالدولة التي أنشأها في طريق الحضارة الأوروبية ، وهي طريق تقتضى السائر فيها أن لا يقف ليلقى أبجاً نظرة إلى الماضي الإسلامى ، لأن مثل هذا النظر خليق بأن يعوق صاحبه عن بلوغ الغاية»^(١)

ولم يكن أحلى في سمع أعداء الإسلام ولا أحسن وقعاً في قلوبهم من أنباء مصطفى كمال الذى تنكر للإسلام بعد أن جمع الناس حول ما يدعو إليه بالإسلام نفسه ، والذى أحل كل أوروبى غريب على كل ما هو إسلامى ، ولنستمع إلى كارل بروكلمان وهو متشرب بهذه الأنباء يسجلها وكله زهو بـمصطفى كمال حيث يقول : «هذه الثورة التي كان على الأتراك أن يواصلوا استتصال خلاياها المفردة من طريق المحاكم الاستثنائية (يقصد ثورة الأكراد التي قامت احتجاجاً على إلغاء الحكم التركى للخلافة) حدثت بحكومة مصطفى كمال إلى أن تخطو خطوات جديدة نحو صيغ الدولة بالصيغة المدنية - والواقع أن وزارة الأوقاف كانت قد ألغيت قبل ذلك في الثانى من آذار سنة ١٩٢٤ م ، وفي يونيو سنة ١٩٢٥ م حرمت جميع الطرق الصوفية ، وفي سبتمبر من نفس العام أغلقت زوايا الدراويش جميعاً ، وقضت الحكومة في قوة وعنف على كل نقد دينى لتدابيرها ، وفي سنة ١٩٣١ م وسنة ١٩٣٢ م ذهبت إلى أبعد من ذلك فحددت عدد المساجد ، ولم تسمح بغير واحد منها في كل دائرة من الأرض يبلغ محيطها خمسمائة متر ، كذلك خفضت عدد الواعظين الذين تدفع الدولة أجورهم إلى ثلاثمائة واعظ ، وفرض عليهم أن لا يقصروا خطبة الجمعة على الأمور الدينية فحسب ، بل أن يضموا إليها فوائد علمية فيما يتصل بالشئون الزراعية أيضاً ، وأوصدت أبواب جامعين من أشهر جوامع استانبول في وجه المصلين ، لتحول أولها - أيا صوفياً - إلى متحف وثانيها - مسجد

(١) السابق ٦٩٥ .

الفتاح - إلى مستودع ، أما القانون الديني - الشريعة - الذي كان حتى ذلك الحين معمولاً به في صعيد العلاقات العائلية والزوجية فقد استبدل به قانون مدني مستمد من القانون السويسري ، وإنما أدى ذلك إلى القضاء نهائياً على تعدد الزوجات ...»^(١) .

ثم يفيض السرور بل يطفح من بروكلمان وهو يتحدث عن أمله الذي تحقق وهو اختفاء المنهج الإسلامي من حياة الناس في تركيا - لتحل محله الأنظمة الغربية والمدنية الغربية ويسمى ما قام به مصطفى كمال من تشويه حياة المسلمين في تركيا اقتباساً من الحضارة الأوروبية ، فيقول : « واتخذت حركة اقتباس المدنية الغربية التي سعى إليها مصطفى كمال مظهراً خارجياً يرمز إليها في قانون ٢٥ من نوفمبر . الذي استبدل القبعة بلباس الرأس الوطني السابق - الطربوش - وما هي إلا فترة حتى فرض اللباس الأوربي على طبقات الشعب جميعاً ...

ولكن مصطفى كمال لم يكف بتكليف شعبه هذا التكيف الخارجي وفقاً لعادات الغرب ، بل طمع أن يشرهم روحاً أوروبية أيضاً ، ولم يكن بد لبلوغ هذا الهدف من أطراح الأحرف العربية ...»^(٢) .

وهذا ما يطمع فيه أعداء الإسلام ، أن تغزو المدنية الغربية أفكار المسلمين وأن تكون ملبساً لأجسامهم وغطاءاً لرؤوسهم وأن يشرب المسلمون روح المدنية الغربية وأن يصبح من الضروري أطراح الأحرف العربية لغة القرآن الكريم .

هذا هو الغزو الفكري وتلك هي التيارات المعادية للإسلام ، إن حرب اللغة العربية هدف كبير من أهداف أعدائنا لأن قتلها إبعاداً للمسلمين عن القرآن الكريم أي إقصاؤهم عن سر نجاحهم وفلاحهم وهو تمسكهم بالإسلام

(١) السابق : ٦٩٨ .

(٢) السابق : ٦٩٩ .

ولنستمع مرة ثانية إلى حبيب الباحثين والدارسين من المسلمين - كارل بروكلمان - وهو سعيد سعادة غامرة باختفاء اللغة العربية من أصوات المؤذنين بالصلوات حيث أمرهم الطاغية أن يربطوا الأذان بالتركية ، بسمى بروكلمان هذه الحماقة حرية فيقول : «ومن ذلك الحين صار المؤذنون أيضا يؤذنون للصلاة باللغة التركية ، ليس هذا فحسب بل إن الحرية الدينية أدت الى اعتناق عدد من الأتراك النصرانية سنة ١٩٣٢م ، وهو عمل كان القانون الإسلامى القديم يعاقب عليه بالقتل» ^(١) . «دعوتى كانت للصلاة - الإسلام دينه ماتت»

ويعود بروكلمان لسجل إعجابه بتركيا التى تركت الإسلام فيتحدث عن الفنون والآداب فيها فيقول : «وفى هذه الحقبة ازدهرت الفنون فى سرعة تدعو إلى الدهش بفضل الرعاية النشطة التى أحاطها بها رئيس الجمهورية بعد أن كانت مهملة إهمالا كاملا .. ووضع النحاتون الألمان أيضا أول تماثيل أتاتورك - وهو شاهد على النزعة الثقافية الجديدة إلى التحرر من العداء الإسلامى القديم للتصوير فنصبت فى ميادين المدن الكبرى كلها .. أما الموسيقى فقد كان معروفا منذ وقت طويل أن رئيس الجمهورية مصمم على أن يقود شعبه نحو آفاق جديدة فى هذا الميدان أيضا .. وفى سنة ١٩٣٤م أنشئت فى أنقرة مدرسة حديثة للموسيقى عهد فى إدارتها إلى «هندمث» و «برويتيرس» ابتغاء تكييف الموسيقى الغربية وتتركها .. وفى ميدان الأدب كما فى ميدان الفن التجسيمي والتصويرى اتجه الأتراك وجهات جديدة خليقة بأن تنهى بهم إلى ما يتفون من تكييف ثقافتهم وفقا للثقافة الغربية ..» ^(٢)

وليس أسوأ فى التبجح والادعاء من أن يزعم بروكلمان أنه يستطيع التعبير

(١) السابق : ٧٠٣ .

(٢) السابق : ٧٠٤ .

عن مشاعر الشعب التركي وأنه يحس بإحساسهم ويعرف حاجاتهم إلى زعيمهم الوطني الوفي العظيم مصطفى كمال عندما علم الناس نبأ وفاته ، فكلفوا بروكلمان أن يعبر عن مشاعرهم وأحاسيسهم نحو هذا الزعيم العظيم ، يقول بروكلمان في ذلك : «توفى أتاتورك في استانبول وشعبه في أمس الحاجة إليه ، أثر مرض منطاول ، تاركاً للأتراك دولة مصنوعة من الخارج مزدهرة في الداخل يدير شئونها رفيقه القديم عصمت إينونو بوصفه ثاني رئيس للجمهورية التركية ..»^(١)

ولست أدري من الذين كانوا في أمس الحاجة إلى مصطفى كمال الذي مسح الشخصية الإسلامية في تركيا وقضى على الشخصية التركية نفسها ؟ أهو الشعب التركي ؟ أم أعداء الإسلام ومنهم بروكلمان ؟

ولعل من يتأمل تاريخ الدولة العثمانية كيف كانت وكيف صارت يدرك بدقة بالغة إلى أي حد تقوم عمليات الغزو الفكري بعمل جليل في إقصاء المسلمين عن الإسلام وعزلهم عن المنهج الأواحد الملائم لفطرة الناس وحاجاتهم الدنيوية والأخروية .

وكذلك كان الشأن في أغلب البلاد الإسلامية في هذين القرنين الأخيرين اللذين سبقا الوقت الذي نعيشه الآن ، انحسرت الموجة الإسلامية لتحل محلها الموجات الأجنبية بعامة والغربية بخاصة .

ففي مصر - كما يقول بروكلمان - «لم تعد أقدارها بعد احتلالها من قبل البريطانيين سنة ١٨٨٢م مرتبطة بالأقدار المشتركة الخاصة بسائر الدول الإسلامية .. والحق أن مصر على ما اعترف به بعض الوطنيين المصريين

(١) السابق : ٧١٠ .

الحصحاء مدينة للإدارة البريطانية إلى حد بعيد جدا .. ولكن ثمة مجالا كبيرا للشك فيما إذا كان من الميسور أن يتحقق ازدهار البلاد وارتفاع مستوى سكانها الفكرى والمعنوى بمثل هذه السرعة التى تحققت بها فعلا لولا هذه الوصاية^(١)

يقرر بروكلمان هذا متناسيا - فى موجة خفته على الإسلام - ما قام به الحاكم المتوحش المتبربر كرومر وسلفه الظالم السير إفلين يارنج ، ومن جاء بعدهما مثل اللورد لويد والسير غورست وكثيرون غيرهم ، يتناسى بروكلمان ما قام به أولئك المتوحشون من أعمال غير إنسانية ، يندى لها جبين الحضارة الغربية والمدنية الأوروبية حيث مارسوا ضد شعب مصر أعمال العنف والتعذيب النفسى والجسدى والسخرة والظلم يتناسى الكاتب الحاقدا ما قامت به بريطانيا من إعلان الحماية على مصر سنة ١٩١٤م وفرضها الأحكام العرفية وإعلانها الحرب على تركيا ، ويتجاهل كيف سلبت السلطة البريطانية الحكام المصريين كل سلطة لهم فى بلادهم ، وركزت كل تلك السلطات فى يد ظالم جلاذ هو السير هنرى ماكماهون ، يتجاهل بروكلمان كل هذا لأنه يحقق له رغبته ورغبة أعداء الإسلام أمثاله ، فيشيد بموقف بريطانيا من مصر ذلك الموقف الذى أفادت منه مصر فى الإدارة .

وفى غير مصر من بلدان العالم الإسلامى كان الشأن كما كان فى تركيا ومصر حيث وجه أعداء الإسلام إلى البلدان الإسلامية حملات من الغزو الفكرى والتشويه لتاريخ المسلمين لإقصاء المسلمين عن دينهم ولتقريبهم من الحضارة الغربية حيث يذوب كيان المسلم ويناع ويصبح تابعا ذليلا حائرا لا يدرى من أمر يومه ولا غده ولا من أمر دينه ودنياه شيئا .

(١) السابق : ٧١٢ .

محاولة تشويه نظام الحياة الإسلامية

بين يندى الحديث عن محاولات تشويه الحياة الإسلامية ، نحب أن نتحدث عن مفهوم «نظام الحياة الإسلامية» في عبارة وجيزة : وإنما رأينا ذلك من الضرورات لندفع به تهمة يوجهها أعداء الإسلام وأتباعهم من المسلمين أحيانا إلى الإسلام حيث يزعمون أنه لا يوجد نظام للحياة معروف في الإسلام أو يزعمون أنه نظام غير صالح لكل زمان ومكان - إن اعترفوا بوجوده .

فما نظام الحياة المتكامل كما جاء به الإسلام ؟

نظام الحياة البشرية في عمومها يتطلب مناهج شاملة متكاملة لمختلف شعب الحياة وأبرز هذه الشعب :

أولا : التربية الخلقية والنظم التربوية أهدافها ووسائلها ومجالات تطبيقها ، وما يترتب عليها من بناء فكر الفرد وخلقه وسلوكه .

ثانيا : الأسس الحضارية وما تشتمل عليه من نظم اجتماعية وسياسية ومدنية وعمرانية ينمكس أثرها على علاقات الناس بعضهم ببعض في مجتمع تحكمه قيم أخلاقية معينة .

ثالثا : الأنظمة الاقتصادية التي تكفل إيجاد القواعد القوية المرنة للإنتاج . والتي تكفل أحسن الصور لتوظيف هذا الإنتاج وتوزيعه وتداوله .

رابعا : السلطة السياسية التي يجب أن تقدم على تنفيذ هذه الخطط ، وتتخذ من أجلها أفضل الوسائل لضمان استمرارها وتكيفها مع حاجات المجتمع

ومتغيراته المستمرة حتى لا تصاب واحدة من هذه الشعب بالجمود أو العجز عن الوفاء بمتطلبات الحياة الإنسانية .

وإذا كانت هذه الشعب المختلفة عندما ينضم بعضها إلى بعض ، يمكن أن تشكل نظاماً عاماً للحياة أو قانوناً عاماً لها ، فإن المسلم به بين المجتمعات البشرية ، أن لهذا النظام أو القانون هدفاً أساسياً ، هو تحقيق السعادة ، وما تتطلبه من أمن واستقرار وعمل وأمل لأولئك الذين يطبق عليهم هذا النظام .

فما هو النظام الإسلامى للحياة فى ضوء هذه المسلمات ؟

إن هذه الشعب المختلفة التى تحدثنا عنها قد جاء بها الإسلام على أكمل صورة عرفتها البشرية من لدن كانت البشرية على الأرض ، وإذا كان فى كل شعبة من هذا الشعب التى وضعها الناس فى مختلف عصورهم وأزمانهم ، فيها نقص هنا وقصور هناك ، فإن هذه الشعب فى الإسلام ونظامه ، لم يعتورها شىء من نقص ، ولا لامسها شىء من قصور لسبب واحد هو أن هذه الشعب المختلفة لنظم الحياة من وضع الله رب الناس للناس عبيده ومخلوقيه ، ومن هنا جاء كمال هذه الشعب فى النظام الإسلامى وجاءت ملامتها لفطرة الله التى فطر الله الناس عليها .

وأما ما يثار حول هذه الشعب فى النظام الإسلامى من اعتراضات تتخذ من فشل هذه الشعب مستنداتها وأدلتها وتوجه من أجل هذا الفشل اتهامات للإسلام نفسه ، فإنها اعتراضات واهية ومستندات أوهى وأوهن من بيوت العنكبوت ، ذلك أن الخطأ فى التطبيق وأساليبه وليس فى النظرية والمبدأ .

وقد نجحت هذه الأنظمة فى فترات غير قصيرة من التاريخ فى أن تجعل من المسلمين خير أمة من الناس ، يوم أحسن المسلمون تطبيق هذه النظرية والأخذ بمبادئ هذه الشعب والتزموا بها كاملة غير منقوصة .

أما عندما أخطأ المسلمون فى التطبيق أو أخذوا ببعض هذه المبادئ وتركوا بعضها فقد فشلوا فشلاً ذريعاً لا ينكره إلا مكابر .

وهذه الأنظمة أو تلك القوانين - كما يسميها بعض الناس - هي ما يسمى في الإسلام بالشرعية ، وشرعية الإسلام لها مصدر أصيل تنبع منه - هو القرآن والسنة . ولها غاية تسعى إلى تحقيقها ، ولها خصائص تميزها عن سواها .

فصدر الشريعة الإسلامية هو كتاب الله وتفسيره المعتمد المؤيد بالوحي المعصوم من الخطأ وهو سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا المصدر العظيم قد طَبَّ فيه رب الناس للناس ما يصلحهم في الدنيا والآخرة ، وتكفل الرسول المعصوم صلى الله عليه وسلم بأن يفسر هذا المصدر بأقواله وأفعاله وسيرته التي سار بها في الحياة ، وليس للشريعة الإسلامية من مصدر سوى هذا الكتاب وشرحه .

وأما غاية الشريعة الإسلامية التي تسعى إلى تحقيقها فهي إقامة المجتمع الإنساني المؤمن بالله المسلم نفسه لشرعته . القائم في نظمه على المعروف المظهر من المنكر - والمعروف هو كل ما يصلح الناس أي يلائم فطرهم السوية . والمنكر هو ما يضر الناس وينحرف بهذه الفطر عن جادتها السوية . وليس الخير والشر في حقيقتها إلا ذلك المعروف وذلك المنكر - على الصورة التي توافق الفطرة السوية فتسمى خيرا ، أو تخالفها وتنحرف بها فتسمى شرا .

وهذا المعروف في نظر الشريعة أنواع ثلاثة :

١ - معروف فرضته الشريعة على الناس وأوجبه إيجابا لا فكاك فيه إلا لضرورة ملحة ولا حياة نقية نافعة للمجتمع إلا به .

٢ - ومعروف جعلته الشريعة مندوبا أو مستحبا ، يتفاضل الناس في الالتزام به ، وتعلو أقدارهم عند الله بالترامهم ذاك ، وبهذا الالتزام تزيد نقاوة

الحياة وصفاؤها - ويسعد المجتمع وتسوده المودة والحياة الراشدة كلما زاد عدد المتمسكين بهذه المذوبات والمستحبات .

٣ - ومعزوف جعلته الشريعة من المباح الجائز الذى يمارسه الناس أو لا يمارسونه على حسب ما يريدون طوعية واختيارا .
وأما المنكر فنوعان :

١ - منكر حرمة الشريعة وحظرته على كل مسلم وهو كل ما يتضمن ضرراً أو شراً ظاهراً أو خفياً يلحق بالمسلمين ، وما حرمة الشريعة واضح بين .

٢ - منكر جعلته الشريعة من المكروهات ، وهو كل ما أظهر الشارع الحكيم كراهيته صراحة أو كتابة مما فى اجتنابه مصلحة للفرد أو للجماعة ، ومن هذه المكروهات ما يقرب أحيانا من حد الحرام ولكنه لا يبلغه . وما يقرب من المباح ولكنه - كذلك - لا يبلغه ، ومن هذا المكروه ما يتذبذب بين هذا وذاك .

وأما الخصائص التى تتميز بها الشريعة الإسلامية فهى كثيرة نغد من أبرزها :

١ - الشمول والاحاطة :

فما من عمل يعمل به الإنسان أو قول يقوله إلا والشريعة الإسلامية قد اتخذت منه موقفا بعينه ، تأمر به أو تنهى عنه أو تندب إليه أو تكرهه ، أو تجعله من المباحات ، ومن هنا كانت الأخلاق والعادات والأعمال صغيرها وكبيرها مما تعنى به الشريعة الإسلامية أشد عناية ، حتى تلك الأمور التى يبتدى إليها الإنسان بفطرته كالأكل والشرب والنوم واللباس تضع الشريعة لها نظاما ، وتحدد لها حدودا وترسم لها أبعادا .

وما من علاقة تسود المجتمع بين أفرادهِ ، أو المجتمع المسلم مع المجتمعات الأخرى إلا وضعت الشريعة لها نظاماً وحددت لها آداباً .
وما من قضية تتصل بنظام الاجتماع الإنساني من سياسة أو اقتصاد أو إدارة إلا وبينت الشريعة الإسلامية فيها الرأي الصائب والموقف السديد ، وهذا هو ما نعينه بالإحاطة والشمول .

٢ - التكامل والترابط :

ونعني بذلك أن الشريعة الإسلامية نظام متكامل لا ينقصه شيء ولم يفت شيء ، ولم يزد فيه شيء عن حاجة الناس ، وهي نظام لا يمكن أن يؤخذ ببعضه ويترك بعضه ، لأنه كل متكامل لا يمكن الاستغناء عن شيء منه بحال ، ولا يستطيع نظام آخر من أنظمة البشر أن يحل محله أو محل بعضه أو يشاركه في تحقيق مصالح الناس .

٣ - الواقعية وسهولة التطبيق :

ومعنى ذلك أن الشريعة الإسلامية نظام لا يعيش في فراغ ، ولا يعم في الخيال وإنما يتميز بالواقعية وسهولة التطبيق ، ولكنه يحتاج دائماً إلى سلطة سياسية تنفذه وتشرف على تطبيقه ، وهذه السلطة السياسية هي الدولة بكل مواصفاتها ، ويخطئ من يدعى أن الدين الإسلامي بمنزلة عن الحياة وأشد منه خطأً ونخبطاً من يدعون أن آداب الإسلام ونظمه لا تحتاج إلى دولة أو سلطة سياسية تقوم على تنفيذ هذه الأنظمة والآداب .

٤ - الإيجابية والحركة المستمرة :

وتلك من أبرز خصائص الشريعة الإسلامية ، فليس في المجتمع المسلم المستظل بالشريعة الإسلامية فرد أو جماعة من الناس ، يقبل منهم الإسلام

السلبية أو التواكلية أو الانعزالية ، وإنما كل فرد في المجتمع المسلم له عمله وعليه واجباته ، لا يتسامح معه في شئ منها إلا إن كان صاحب عذر من مرض أو عجز أو غيره .

٥ - وضوح الغايات ونبل الوسائل :

الشريعة الإسلامية تقوم على فكرة واضحة وتخدم غاية واضحة كذلك ، وتستند في تحقيق ذلك على دستور أساسي تتحرك فيه كافة مؤسساتها ولهذا الدستور قوانين إدارية وقوانين للأحوال الشخصية وقوانين عامة .
فالفكرة الواضحة التي تقوم عليها الشريعة الإسلامية هي توحيد الله سبحانه والاعتراف به : الإله الواحد الأحد الخالق الرازق المحيي المميت ، السميع البصير الرقيب المحاسب ، الذي أوحى إلى محمد صلى الله عليه وسلم هذا القرآن : هُدى للناس بين للبشرية طريق فلاحها ونجاحها ، وبحاسبا على الأخذ به أو تركه .

والغاية الواضحة التي تخدمها وتسعى إلى تحقيقها هي أن يعبد الله وحده في الأرض ، وأن يعيش الناس في هذه الدنيا ممارسين للمعروف آمرين به ممنوعين عن مقارفة المنكر ناهين عنه سواهم ، ليكونوا بذلك خير أمة أخرجت للناس .

والدستور الأساسي الذي تتحرك في إطاره كافة المؤسسات الإسلامية هو القرآن الكريم وما صرح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم - وهذا الدستور أى القواعد الأساسية للحكم شاملة محيطه كما أسلفنا .

والقانون الإداري الذي تدير الدولة الإسلامية على هديه وترسم خطاه هو ذلك القانون الذي يمكن أن نفهم قواعده الأساسية من حكومة الرسول صلى

الله عليه وسلم وحكومات الخلفاء الراشدين من بعده ، وكان من فضل الله على المسلمين بخاصة وعلى البشرية كلها بعامه ، أن حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيرته معروفة مسجلة موثقة لم تدخلها شوائب تبدد جوهرها ولا ران عليها من ركاس التاريخ ما يخفى معالمها ، ولا تقادمت بها الأزمان فأذهبت بهجتها - لأنه آخر الرسل - وليس من رسول ولا نبي قبل محمد صلى الله عليه وسلم إلا وقد اكتفت تفاصيل حياته وسيرته الأوهام والتراويق حتى ذهبت أو كادت معالم تلك السير من لدن آدم إلى عيسى بن مريم عليهما السلام وليس عبثاً - وقد أراد الله للبشرية أن يكون خاتم الأنبياء محمداً صلى الله عليه وسلم - أن يهدى المسلمين إلى المحافظة الدقيقة الوثيقة على سنة خاتم الأنبياء وإنما كان ذلك لتكون حياة الرسول صلى الله عليه وسلم وسنته أنموذجاً حياً متكاملًا للحياة البشرية الراشدة في ضوء الدستور الإسلامى الحالى .

وأما قانون الدولة العام وقوانين الأحوال الشخصية والقوانين الجنائية والمدنية وغيرها من القوانين والنظم التى تتطلبها حاجة المجتمع ليعيش فيه الناس فى أمن وعدالة ، فإن الشريعة الإسلامية فيها من هذه الأحكام التفصيلية ما ينى بتحقيق هذه الحاجات .

وأروع ما فى الشريعة الإسلامية فى هذا المجال أن القوانين التى وضعها - لتلائم كافة متطلبات الحياة ومختلف متغيرات الاجتماع البشرى - قد انقسمت من أجل هذه الملاءمة المستمرة لكافة المتغيرات - إلى قسمين :

الأول منها :

قسم ثابت قطعى لا يتأثر بتغير الزمان والمكان والناس وهو يتمثل فى الأمور الثلاثة التالية : -

١ - الأحكام القطعية الصريحة الواردة في الكتاب والسنة الصحيحة ، كحرمة الزنا والخمر والميسر والربا . وكأنصبة الورثة من مورثهم . وكالحدود-- وهي العقوبات المقدرة على جرائم بعينها كحد السرقة وحد الزنا وحد القذف وما إلى ذلك .

٢ - الضوابط العامة التي لا يجوز لمسلم أن يتجاوزها في تصرفاته وأعماله ، كحد عدد الزوجات بأربع ، وحد الطلاق بثلاث مرات ، وحد الثلث للوصية وغير ذلك .

٣ - القواعد العامة التي يعرف بها الحلال من الحرام مثل حرمة كل شئ مسكر وحرمة كل بيع لا يتم فيه تبادل المنفعة بين الجانبين على تراض منهما . ومثل قوامة الرجال على النساء .

فهذا الجانب من القوانين الإسلامية ثابت راسخ لا تؤثر فيه المتغيرات . ولا اختلاف الزمان والمكان .

والثاني من هذين القسمين :

قسم متغير متطور يخضع للمتطلبات الآتية في كل زمان ومكان . وهذا القسم يمثل في الأمور التالية : -

١ - تفسير الأحكام أو تأويلها من لدن رجال الفقه الإسلامى ، بحيث يسوغ هذا التفسير اليوم ، وربما يسوغ غداً ، مادام التفسير مؤيداً بالقرائن والدلائل . وهو باب اتسع وما يزال يتسع في مختلف العصور التي مرت على المسلمين .

٢ - القياس - وهو تطبيق حكم شرعى ثبت في قضية ما ، على قضية أخرى تماثل تلك القضية - أو قياسها عليها ، وهو باب رئيسى في هذه القوانين المتغيرة المتطورة .

٣ - الاجتهاد - وهو فهم قواعد الشريعة وأصولها العامة فهماً دقيقاً واعياً ، ثم

تطبيق هذه القواعد والأصول على قضايا جديدة لم يكن لها نظائر في السابق .

٤ - الاستحسان - وهو وضع ضوابط وقوانين جديدة تحقق مصلحة عامة للمسلمين جميعا . أو مصلحة عامة لبعض الأفراد منهم ، بحيث لا تتعارض تلك المصلحة مع شئ من قواعد الإسلام وأصوله وروحه .

وهذا القسم المتغير المتطور هو الذى يتيح لأهل رأى وأصحاب الحل والعقد من المسلمين أن يضعوا من النظم والقوانين لكل عصر ما يناسبه ، ولكل زمان ما يليق به ، متجاوبين فى ذلك مع مصالح المسلمين المتجددة المتغيرة .

هذا هو نظام الحياة الإسلامية فى عرض موجز سريع قصدت من ورائه أن يعرف من لا يعرف من أعداء الإسلام والحاquدين عليه صورة تقريبيه لتنظيم الإسلام للحياة البشرية تنظيما دقيقا محققا لسعادة الدنيا والآخرة .

فكيف حاول أعداء الإسلام تشويه هذا النظام ؟

وكيف أرادوا عن طريق الغزو الفكرى أن يياعدوا بين المسلمين وبين نظام الحياة الإسلامية ؟

وكيف استهدفوا من وراء ذلك عزل دستور المسلمين وكافة قوانينهم المنبثقة من هذا الدستور ؟

إن التهم التى وجهت إلى نظام الحياة الإسلامية كثيرة وإنها حملات تشويهية منظمه . نستطيع - على سبيل التقريب - أن نحصرها فى خمس تهم هى فى ظننا أبرزها وأخطرها وهى : -

أولا : اتهامهم للقوانين والنظم الإسلامية بالرجعية وعدم القدرة على مواكبة ركب الحضرة والتقدم .

ثانيا : اتهامهم النظم الإسلامية بالمحلية والقصور والإقليمية وأنها كانت صالحة للعصور الوسطى - أى عصور التخلف والظلام - وحدها .

ثالثا : اتهامهم لها بأنها عند التطبيق والتنفيذ تعتمد على وحشية أو هجبة أو قوة ، وبخاصة فيما يتصل بالرجم والقطع والجلد .

رابعا : اتهامهم للقوانين والنظم الإسلامية بأنها لم تحظ بإجماع المسلمين عليها في عصر من العصور .

خامسا : اتهامهم لها بأنها تتجاهل الأقليات غير المسلمة في ظل الدولة الإسلامية .

وهذه التهم قد أطلقها أعداء الإسلام من غير المسلمين ، وشاركهم في إطلاقها بعض المسلمين ، وهؤلاء وأولئك بإطلاق هذه التهم إنما يقومون بعمل منظم - فيما أتصور - مرسومة له أبعاده وأهدافه - فيما اعتقد - وليس من ورائه كما أسلفت إلا تشويه النظام الذى اختاره الإسلام للحياة الإنسانية ، لتتمثل بذلك الأمة الإسلامية عن دينها وعن منهجها في الحياة .

ولسنا نقش هذه التهم واحدة واحدة لتبين وجه الخطر فيها من جانب ، ولنرد عليها من جانب آخر .

أما أعداء الإسلام من الأجانب عنه ، فإنهم اتهموا القوانين والنظم الإسلامية التى ترسم للحياة البشرية صورها وأبعادها ، بالرجعية والعجز عن مواكبة ركب الحضرة ، لعلمهم ، بل ليقينهم بأن المسلمين يوم يُحْطَى بينهم وبين الأخذ بقوانين الإسلام ونظمه ، فإنهم يصلون بهذه البشرية الى الرشد والهداية ، وهم بذلك قاضون على أحلام هؤلاء الأعداء فى الاستمرار فى امتصاص رحيق الحياة من البلدان الإسلامية عن طريق استغلال خبراتها ومقدراتها الاقتصادية ، وما استيقن هؤلاء الأعداء من تلك الحقيقة - وهى حيلولة الإسلام بينهم وبين استغلال الناس وظلمهم إلا بما شاهدوا فى تاريخ المسلمين . يوم كان القانون الإسلامى والنظام الإسلامى يشق لهم طريق الفتح والتعمير والترشيد لأبناء البشرية جميعا .

وربما يقال : إن ذلك كان يوم كانت بين المسلمين وأعدائهم صولات

وجولات في ميادين القتال ، أما اليوم فقد وضعت الحرب أوزارها بين الطرفين !

والحق أن الحرب لم تضع أوزارها بعد : وأن مخططات الأعداء ماضية في طريقها آخذة في كل يوم وسيلة من وسائل الحرب ، ويخطئ من يظن أن أعداء الإسلام قد كفوا عن الكيد له ولأبنائه ، ولقد ورث الأخلاف عن الأسلاف من أعداء الإسلام والمسلمين كراهية الإسلام والحقد عليه من يوم دارت تلك الحروب بين المسلمين وأعدائهم في المعارك التي أطلقوا عليها «حروب العصور الوسطى» ويوم ذاق فيها أعداء الإسلام من المسلمين مرارة الهزيمة ورأوا بأعينهم كيف يصنع الإسلام بالناس إذ يحررهم من التبعية ويمكنهم من النصر على الأعداء .

هؤلاء الأعداء من الأجانب عن الإسلام حينما أطلقوا هذه التهمة كان - وما يزال - هدفهم أن ينظر المسلمون إلى قوانين الإسلام ونظمه نظرة من لا يثق فيها ولا يعمل بها ، فيُضحي المسلمون وقد جردوا من أمضى أسلحتهم وحيل بينهم وبين أحسن ماميزهم الله به ، فلا يبقى أمامهم والأمر كذلك إلا أن يذوب كيانه ولا يجدون من شرعهم ونظامهم ما يجمعون عليه أمرهم أو يلمون به شعهم ، وعندئذ يضعفون ويصبحون لقمة سائغة للآكلين ، وهذا الذي حدث ولا يزال يحدث لكثير من البلدان الإسلامية التي تركت نظام دينها وقوانين دستورها الخالد .

وأما أعداء الإسلام من المنسوبين إليه بالاسم والرسم ، فإنهم اتهموا النظم الإسلامية بالرجعية - لما رأوا من سوء التطبيق ، ولما شاهدوا من أعمال من يتسبون إلى الإسلام ولا يعملون بقوانينه ونظمه ، وربما لما وقع عليهم من ظلم هؤلاء المنحرفين عن القوانين الإسلامية - هذا إذا استبعدنا أن بعضهم أتباع لأعداء الإسلام من الأجانب عنه يرددون عنهم ما يسمعون دون وعي تقربا إليهم وإلى حضارتهم وإلى ما يمتنعون - وهم أصحاب النفوذ - من أثمان على

هذه المجازاة ، وربما أطلق بعضهم هذه التهم لما شاهدوه وانخدعوا به من بريق النظم الغريبة وشكلياتها وما يتشدق به الداعون إليها من كلمات جوفاء حول الحرية والمساواة والعدالة مما يستهوى الغارقين الغافلين - وربما انخدعوا بما يردد هؤلاء الأعداء من حرية المرأة ومساواتها بالرجل ومن حرية شرب الخمر والشذوذ الجنسي فضلا عن حرية الزنا والبغاء والميسر والربا ، وهي أمور تستهوى أصحاب الأهواء وطلاب المتع الرخيصة .

ووجهة هؤلاء في إطلاق تلك التهمة هي أن يتخلصوا هم من التحسك بنظم الإسلام وقوانينه ، لأن تلك النظم والقوانين لا تتيح لهم من شهوات أبدانهم وأهواء نفوسهم إلا في إطار ما أحل الله وهو الصورة الراشدة للإنسان الذي كرمه الله وفضله على كثير مما خلق .

وأما اتهامهم للقوانين الإسلامية بالمحلية والإقليمية فعناء أنها قوانين ونظم لا تلائم إلا العصر الذي وضعت فيه والناس الذين عاصروا وضعها ، وهو أمر تحدثنا فيه عند حديثنا عن اتهامهم للقرآن الكريم بالمحلية والإقليمية وقد أوضحنا هناك فسادَه وبطلانه بما لا تحب أن نعيده هنا . وإنما نكتفي هنا بأن نقول : إن القرآن الكريم وما تفرع عنه من نظم وقوانين ، استطاع في الماضي ، وهو قادر في الحاضر والمستقبل ، على أن يمد البشرية كلها بأمثل نظام للحياة وأقربه إلى فطرة الناس التي فطرهم الله عليها .

وأما اتهامهم للنظم الإسلامية للحياة . بأنها عند التطبيق تتضمن وحشية أو همجية فيما يتصل بإقامة الحدود الشرعية من قطع يد السارق ورجم الزاني وجلد شارب الخمر وما إلى ذلك ، فهي اتهامات ضالة مضلة تقوم على الافتيات والمغالطة .

ولنا أن نتساءل قائلين : أين الوحشية والهمجية ؟ أي في إقامة هذه الحدود لردع المرتكبين وزجر العصاة وتحقيق الأمن والسعادة للناس ؟ أم أن الوحشية والهمجية في تعطيل هذه الحدود وما يترتب على هذا التعطيل من

تشجيع العصاة والمجرمين ، وحرمان الناس من أكبر نعمة وأهمها وهي نعمة الأمن والاطمئنان ؟

أمن الوحشية أن تقام الحدود التي شرعها الله لإصلاح الناس ؟

أم الوحشية والهمجية أن تعطل هذه الحدود فيتجرأ المنحرفون وتعجز الدولة - أى دولة - عن حماية الناس - ، فيخاف الناس ويردعون ، ويعجزون حتى عن حمل المال في جيوبهم ، فضلا عما يعانيه أى ضعيف أو صغير من ذل وخوف من أى قوى أو كبير ؟

أين الوحشية والهمجية على وجه الحقيقة ؟

أهى فى إقامة الحدود أو فى غيبتها ؟

هل الوحشية فقط فى تطبيق الحدود على المجرمين أعداء المجتمع ؟

ولاوحشية ولاهمجية عندما يعامل أصحاب الرأى والفكر السياسى بأقصى ألوان التعذيب البدنى من ضرب وحرق ونهش للحم وتمزيق للأجساد بواسطة الآلات والكلاب المسعورة والصدمات الكهربائية ؟

أمن الوحشية والهمجية أن تقام حدود الله ؟ وليس من الوحشية والهمجية إذلال الإنسان وتعذيبه بخلع أظافره وإحراق جسمه وتسليط الصدمات الكهربائية على مخه وأعصابه ، وعصب رأسه بطوق حديدى يقضض عظمه ، وكيه بالنار وقلع شعره والعبث بكرامته وآدميته ، كما يتعرض لذلك المعارضون فى الرأى والسياسة فى البلاد التى تتشدق بالحرىات والديمقراطية والاشتراكية والشيوعية ، وتبأهى بقوانينها ونظمها ؟

من حقنا أن نتساءل هذه التساؤلات ، ومن حق الأجيال المسلمة الحاضرة والآتية أن تعرف أنها بالإسلام غنية بأحكام نظام للحياة البشرية وأكمل تشريع يحفظ على الإنسان كرامته وآدميته ..

وأما اتهامهم للقوانين الإسلامية بأنها لم تحظ بإجماع المسلمين عليها فى عصر

من العصور فإنهم بذلك يغالطون ويضللون ولا ينطلي باطلهم ذاك على عاقل من الناس ، وهناك فارق كبير ما ينبغي أن يخفى على عالم أو عاقل بين دستور الإسلام وقانونه الأساسي - وهو الكتاب والسنة الصحيحة - وبين ما اتفق عليه الفقهاء المسلمون في عصر من العصور من النظم والقوانين التي فسر بها حسب ظروفهم وملابسات زمانهم ذلك الدستور الإسلامي الأصيل - وهو الكتاب والسنة - فمن الواضح أن التفسير والتأويل للكتاب والسنة في كل عصر من العصور أمر يتناوله الفقهاء ويتداوله العلماء ولا حرج في ذلك عليهم ولا غبار ماداموا قد اجتهدوا وسددوا وقاربوا ، فعندنا الآن شيان :-

١ - الكتاب والسنة في كل عصر من العصور .

٢ - واجتهادات الفقهاء في كل عصر من العصور .

فأى هذين لم يحظ بإجماع المسلمين ؟

إن قالوا : إنه القرآن والسنة النبوية فهم في غي يعمهون ، وهم كذبة مفتاتون ، لن يستطيعوا أن يسندوا باطلهم ذاك بأدنى دليل أو أوهى برهان . فلم يحدث على مدى الأربعة عشر قرناً التي عاشتها البشرية في ظل القرآن الكريم والسنة النبوية أن اختلف المسلمون على نص القرآن أو على نص السنة الصحيحة ، بل لم يحدث غير الإجماع على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ حتى بين المختلفين من المسلمين .

وإن قالوا : إنها آراء الفقهاء واجتهاداتهم وتفسيرهم للكتاب والسنة ، بمعنى أنه لم يحدث إجماع من المسلمين على القوانين والنظم التي أخرجها الفقهاء من نصوص الكتاب والسنة ، إن قالوا ذلك فإنه لا يضير النظم الإسلامية في شيء ولا يبدل على عيب أو قصور في تلك النظم ، بمقدار ما يبدل على حرية الرأي ونفج الفكر والقدرة على الانطلاق في تفسير النصوص دون تبعية بل لانبالغ حين نقول : إن المآخذ التي تؤخذ على بعض المسلمين في بعض

المقصود أنهم قلّدوا وتابَعوا من سبقهم في تفسير النصوص الإسلامية دون أن ينظروا في متطلبات عصرهم ومقتضيات ظروفهم .

وأما اتهامهم للقوانين والنظم الإسلامية بأنها تتجاهل حقوق الأقليات التي لا تنتسب إلى الإسلام فتحرمهم من حقوق ولا تسمح لهم بممارسة الحياة الإنسانية في ظل الكرامة الجديرة بالإنسان ، تلك التهمة التي اتخذها أعداء الإسلام ذريعة إلى احتلال كثير من البلدان الإسلامية في فترات ضعف المسلمين ، وهي تهمة باطلة يكذبها التاريخ المعروف للمسلمين يوم كانوا يحكمون بلادا فيها أقليات غير مسلمة ، بل تتجاهل الحقيقى للأقليات بل سحى . هذه الأقليات إنما هو موجود في الدول غير المسلمة التي توجد بها أقليات مسلمة ، والتاريخ المعاصر يمدنا بعشرات الأدلة والبراهين .

أما في ظل الحكم الإسلامى فقد كان للأقليات غير المسلمة من الحقوق المدنية ما يكفل العيش الكريم ، إذ واجب الحاكم المسلم والدولة المسلمة أن يحافظوا لهذه الأقليات على أعراضهم وأموالهم وحرّياتهم الشخصية وكل ما تقوم به أو عليه الحياة الإنسانية الجديرة بالإنسان ، وكل ما تحرم منه هذه الأقليات في ظل النظام الإسلامى هو تولى المناصب العامة في الدولة المسلمة .

فالإسلام ينظر إلى غير المسلمين في الدولة المسلمة على أنهم مواطنون لا أقليات ، لهم من الحقوق وعليهم من الواجبات ما تستوجبه المواطنة في ظل النظام الإسلامى^(١) .

وإذا أراد مغالط أن يتحدث عن الجزية التي تأخذها الحكومة المسلمة من أهل الذمة الذين يمثلون الأقليات فيها - فإنها وإن كانت في الحق ضريبة لإخضاع أهل الذمة إلا أنها تدخل في نطاق ضريبة الأمن والدفاع ، وهي

(١) للمؤلف بحث بعنوان : مع الفكرة والحركة والمهج في غير أمة أخرجت للناس توسع فيه في الحديث عن هذا الموضوع

مورد هام من موارد الدولة الإسلامية ، بل هي ضريبة يدفعها الآن جميع المواطنين في أغلب البلاد إسلامية وغير إسلامية .

فإذا عجزت الدولة الإسلامية عن تحقيق الأمن لهذه الأقليات أو عجزت عن الدفاع عنهم ردت إليهم ما أخذت من جزية حتى ولو كانت قبضتها منهم ، كما كتب أبو عبيدة الجراح رضى الله عنه إلى أمرائه أن يردوا إلى الذميين كل ما أخذوا منهم من الجزية ويقولوا لهم : قد شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم ، فهذه أموالكم التي أخذناها لذلك ، تُرد إليكم ، فرد جميع أمراء الجنود كل ما كانوا جمعه من الأموال ^(١) .

وقد ذكر البلاذرى أثر رد هذه الجزية في نفوس الذميين قال : فقال أهل حمص : « قال أهالى ذلك البلد بلسان واحد ، لدينكم وعدلكم أحب إلينا واقه مما كنا فيه من الظلم والغشم » وقالوا : « والتوراة لن يدخل عامل هرقل مدينة حمص إلا أن نغلب ونجهد » ^(٢) .

هكذا كانت تعامل الدولة الإسلامية الأقليات فيها ، أو معاملة الأقليات معاملة غير إنسانية فأمر تعرفه دول الحضارة الغربية حق المعرفة في وقتنا هذا وفي غيره من الأوقات ، وتسأل عنه الأقليات الملونة في أمريكا ، والأقليات المسلمة في روسيا والأقليات المسحوقة المذابة ذويانا في أنظمة تلك الدول - تسأل عنها الأغليات المسلمة التي أجبرت إجبارا في كثير من دول آسيا وأفريقيا على ترك دينها أو تضطهد حتى الموت ، تسأل عنها بعثات التبشير والتنصير في الشرق الأقصى وفي أفريقيا ، هذه هي الأقليات المضطهدة في ظل النظم الأوروبية التي تدعى الحضارة والتقدم ، بل تسأل عنها الأقليات المسلمة التي ذابت الويال والنكال على أيدي الأسباب في أعقاب تفرق المسلمين هناك وذهاب ربحهم .

(١) أبو يوسف : الخراج : ١١١ .

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان : ٧ ط أوروبا .

وبعد : فإن هذه التهم الموجهة إلى النظام الإسلامى للحياة الإنسانية : لم يطلقها أصحابها عبثا ، وإنما كانت وما تزال جزءا من خطة اختطوها بقصد تشويه نظام الحياة كما منه الإسلام وكما أقرته نظمه .

وذلك نمط من الغزو الفكرى والثقافى ، ليس أقل خطرا على المسلمين من الغزو العسكرى المؤيد بوسائل الحرب وآلاتها التدميرية الرهيبة .

والهدف من كل ذلك واضح ، وهو تشويه الإسلام فى الأنظار لعزل المسلمين وغيرهم عن أن يبتدوا بهديه أو يعيشوا فى ظل دستوره وقوانينه .

محاولة تشويه التراث الإسلامى

كلمة التراث بمعناه الأجنبى Legacy «الأثرى» ليست داخلة فى المفهوم الذى نريده ، فى هذا البحث للكلمة ، لأن الكلمة بهذا المعنى الأجنبى تعنى - فى العرف الشائع لها عند الناس - شيئا موروثا ، ونحن لانوافق على أن الإسلام موروثات تتناقلها الأجيال ، بل هو دين حى خالد مواكب لكل جديد متطور من ألوان الحياة ومتغيراتها ، فضلا عن أننا معشر المسلمين لايبنى أن نتصور أن الدين ينتقل إلينا بالإرث عن الآباء والأجداد .

أما المفهوم الذى نريده من كلمة التراث الإسلامى فى هذا البحث فهو تلك الثروة الفكرية التى أنتجتها عقول المسلمين فى مختلف مجالات المعارف والفنون ، وفى سائر ألوان الحضارة ومظاهرها ، مما انتقل إلينا عبر الأجيال ، وأقول : الثروة الفكرية فى مختلف الفنون والمعارف لأننى بادئ ذى بدء ذلك المفهوم القاصر الذى يمحصر التراث فى الغالب فى المخطوطات الخاصة بالعلوم الإسلامية عقيدة وشريعة وسيرة وتاريخا وفلسفة ، ويعلم اللغة العربية من لغة وبلاغة وأدب ، إذ التراث يشمل ما هو أوسع من ذلك بكثير ، يشمل كافة مجالات العلم والمعرفة من طب وصيدلة وكيمياء وعقاقير وفيزياء ، وفلك ورياضيات وهندسة وطرز متعددة للمباني والمآثر ، ويشمل كذلك نظم الحياة المتعددة التى تميزت بها مختلف الشعوب التى دخلت الإسلام واتخذته دينا ومنهجاً .

وهذا التراث بالمعنى الذى حددته نجيب العناية به والاهتمام بالاستفادة منه ، لأن تلك العناية وهذا الاهتمام هو الذى يكشف عن الجذور والعناصر المكونة لأصالة المسلمين والمعبرة عنها أصدق تعبير فى عصورها الزمنية المختلفة ،

إذ أن هذا التراث بالنسبة لأمة من الأمم هو الأساس الراسخ الوطيد لحاضرها ومستقبلها .

وهناك ما أحب أن أنبه عليه في هذه العناية الواجبة بالتراث ، هو التأكيد على أن العناية بهذا التراث ما ينبغي أن تقف عند حدود الإشادة والاعتزاز ، أو تمتد إلى التباهى والتفاخر ، لأن ذلك فعل الكسالى والعاجزين ، وإنما نريد أن تمتد هذه العناية لتشمل الاستفادة من التراث في تصور حاضر إسلامي ملائم ، ومستقبل للأمة الإسلامية أدعى لأن يضعها من جديد تحت مظلة الإسلام الشاملة المتكاملة .

وليس من التباهى ولا التفاخر أن تؤكد في هذا البحث أن التراث الإسلامي - بالمعنى الذى حددناه - كان الركيزة القوية التى اعتمدت عليها أوروبا في نهضتها العلمية الأخيرة ، بل ليس من المبالغة أن نقول : إن هذا التراث الإسلامى هو الذى رقد عصر إحياء العلوم في أوروبا والعالم الغربى كله ، فقد كانت العلوم والمعارف الإسلامية العربية تترجم باهتمام بالغ إلى عدد من اللغات الأوروبية ، فمن الثابت المؤكد أن الدولة الإسلامية بمعطياتها الحضارية المتعددة ظلت في مجال القيادة للبشرية معظمها ، قيادة مادية ومعنوية حيناً غير قصير من الزمان ترفد الفكر والعلم والمدنية وال عمران وتؤثر في مسار الحياة الإنسانية تأثيراً ضخماً غير منكور .

ولقد انتقل التراث الإسلامى الى العالم الغربى عبر الدردنيل والبحر الأسود وقزوين وصقلية وإسبانيا ، فكان له أبرز الأثر في حركة إحياء العلوم في أوروبا تلك الحركة التى بدأ بها تاريخ النهضة الأوربية الحديثة .

وليس من الخفى أن انتقال الحضارة الإسلامية إلى العالم قد تم قبل عصر إحياء العلوم في أوروبا بزمن غير قصير ، عن طريق العلاقات السياسية والاقتصادية والحروب التى دارت بين الدول الإسلامية وبين العالم الغربى ، وليس خافياً كذلك أن الأوربيين قد انبهروا بتلك الحضارة الخصبية الشاملة

فنقلوا منها وعنها ماوسعهم النقل ، وهذه المعابر المتعددة التي انتقلت حضارتنا عن طريقها إلى العالم كله صادفت تلك الفترة الزمنية التي يدعونها فترة العصور الوسطى التي سبقت عصر إحياء العلوم في أوروبا .

وإن أكثر من شاهد من أبناء الغرب ومفكره يعترفون بذلك التأثير القوي الذي تركته الحضارة الإسلامية في الغرب ، مما أضاء لهم طريق النهضة ويسر لهم سبيل إحياء العلوم ، نجد هذه الاعترافات على ألسنة مشاهير الكتاب - حتى المتعصبين منهم ضد الإسلام - من الأوروبيين ، ونود أن نذكر هنا من هؤلاء المعترفين : -

١ - ه . ج . ويلز - في بعض ماكتبه وبخاصة كتابه : معالم تاريخ الإنسانية .

٢ - وجوستاف لوبون : في كتابه : حضارة العرب .

٣ - ودي بور .

٤ - وأوليري .

٥ - وتويني .

في بعض ماكتبه ، وفي بعض ماكتبه سواهم .

وأغلب ماقرأ من كتب في تاريخ أوروبا في العصور الوسطى نجد فيها أن الأمير فردريك أسس جامعة نابولي عام ٦٢٢ هـ / ١٢٢٤م وجعلها مدرسة لنقل العلم العربي إلى العالم الغربي ، ونجد فيها كذلك أن جامعتي بولونيا وباروخا قامتا أساساً على الثقافة العربية وبخاصة فلسفة ابن رشد وطب ابن سينا .

وفي صقلية اعتمدت جامعة باليرمو - أقدم جامعة غربية - على الثقافة العربية بحيث حرص الأمير : ريجار «روجيرو» على استعانتها منها ، بل استقدم لها الأعلام من علماء العرب ، وكان منهم الإدريسي الذي ألف لأمر صقلية كتاب :

«نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» هذه حقائق يعترف بها الأوروبيون أنفسهم .

يقول «جوستاف لوبون» : «وأشهر جغرافي العرب هو الإدريسي ، ومن كتب الإدريسي التي ترجمت إلى اللاتينية تعلمت أوروبا علم الجغرافية في القرون الوسطى» (١) .

ثم يقول بعد ذلك : «وكتب العرب التي انتهت إلينا في علم الجغرافية مهمة للغاية وكان بعضها أساسا لدراسة هذا العلم في أوروبا» (٢) .

وفي موضع آخر من كتابه السابق يقول عن علم الفلك عند العرب : «واليوم نعلم أن فلكيي الصين ولاسيا شوكنج ١٢٨٠م استنبطوا معارفهم الفلكية الأساسية من تلك الكتب ، ولذلك نقول : إن العرب هم الذين نشروا علم الفلك في العالم كله في الحقيقة» (٣) .

ولم تكن الحضارة الإسلامية ذات أثر في نهضة أوروبا العلمية أو الصناعية فحسب ، وإنما تجاوز هذا التأثير النهضة العلمية الصناعية إلى الأخلاق الأوروبية حيث هذبت طبائعهم وعلمتهم العواطف النبيلة ، وهذا هو مسير «بارتلمى سنت هير» في كتابه عن القرآن يقول : «أسفرت تجارب العرب وتقاليدهم عن تهذيب طبائع سننوراتنا الغليظة في القرون الوسطى ، وتعلم فرساننا أرق العواطف وأنبها وأرحمها من غير أن يفقدوا شيئا من شجاعتهم ، وأشك في أن تكون النصرانية وحدها أوحى إليهم بهذا مما بولغ في كرمها» (٤) .

وكل ما نأخذه على ما كتبه جوستاف لوبون أو ما نقله عن بارتلمى «سنت هير» في هذا المجال الذي نقلنا فيه هذا القول ، كل ما نأخذه عليها أن الحق كان يقتضي كلا منها أن يقول المسلمين بدل قوله العرب ، فوضع كلمة

(١) جوستاف لوبون : حضارة العرب ٤٧٠ ترجمة عادل زعير . ط الحلبي القاهرة

(٢) السابق : ٤٦٩ .

(٣) السابق : ٤٥٩ .

(٤) السابق : ٥٥٦ - ٥٧٧ .

المسلمين بدل كلمة العرب يفضي على كلام كل من الكاتبين مزيدا من الجودة والإنصاف .

وربما كان بعض المتعصبين من الأوروبيين - مبشرين ومستشرقين لا يحبون أن يعترفوا للحضارة الإسلامية بفضل على حضارة أوروبا أو لثراث المسلمين على أوروبا ، ولا بد أن يكون من وراء هذا الإنكار سر وسبب ، ونحن نعرف سلفا أن هذا السر وذاك السبب هو الحق على الإسلام والمسلمين .

ونحب هنا أن نوضح ذاك السر كما تحدث عنه جوستاف لوبون ، حيث يعلل لإنكار بعض الأوروبيين لفضل الحضارة العربية - كما يسميها لوبون وهي الحضارة الإسلامية كما نقول - على أوروبا ، فيقول : « لم ينكر تأثير العرب علماء الوقت الحاضر الذين يضعون مبدأ حرية الفكر فوق كل اعتبار ديني كما يلوح ؟

ثم يجيب لوبون عن هذا التساؤل فيقول : « لا أرى غير جواب واحد عن هذا السؤال الذي أسأل نفسي به أيضا ، وهو أن استقلالنا الفكري لم يكن في غير الظواهر بالحقيقة ، وأتألسنا من أحرار الفكر في بعض الموضوعات كما نريد ، فالمرء عندنا ذو شخصيتين : الشخصية العصرية التي كونتها الدراسات الخاصة والبيئة الخلقية والثقافية ، والشخصية القديمة غير الشاعرة التي جمدت وتحجرت بفعل الأحداث ، وكانت خلاصة لماض طويل ، والشخصية غير الشاعرة وحدها ، ووحدها فقط هي التي تتكلم عند أكثر الناس وتمسك فيهم المعتقدات نفسها مسماة بأسماء مختلفة وتعمل عليهم آراءهم فيلوح ما تمليه عليهم من الآراء حرا في الظاهر فيحترم .

والحق أن أتباع محمد (صلى الله عليه وسلم) ظلوا أشد من عرفته أوروبا من الأعداء إرهابا ، عدة قرون وأنهم كانوا عندما لا يرددوننا بأسلحتهم كما في زمن «شارل مارتل» والحروب الصليبية ، أو يهددون أوروبا بعد فتح القسطنطينية كانوا يذلوننا بأفضلية حضارتهم الساحقة ، وأتألم لم نتحرر من

نفوذهم إلا بالأمس ، وتراكمت مبسراتنا الموروثة ضد الإسلام والمسلمين في قرون كبيرة ، وصارت جزءا من مزاجنا ، وأضحت طبيعة متأصلة فينا تأصل حقد اليهود على النصارى الحقى أحيانا والعميق دائما ، وإذا أضفنا إلى مبسراتنا الموروثة ضد المسلمين مبسراتنا الموروثة الذى زاد مع القرون بفعل ثقافتنا المدرسية البغيضة القائلة أن اليونان واللاتين وحدهم منبع العلوم والآداب في الزمن الماضى أدركنا بسهولة سر جحودنا العام لتأثير العرب العظيم في تاريخ حضارة أوروبا ، ويزاءى لبعض الفضلاء أن من العار أن يرى أن أوروبا النصرانية مدينة لأولئك الكافرين في خروجها من دور التوحش ، فعار ظاهر كهذا لا يقبل إلا بصعوبة .

ثم يواصل لوبون فيقول : « نختم هذا الفصل بقولنا : انه كان للحضارة الإسلامية تأثير عظيم في العالم ، وإن هذا التأثير خاص بالعرب وحدهم فلا تشاركهم فيه الشعوب الكثيرة التى اعتنقت دينهم ، وأن العرب هذبوا البرابرة الذين قصوا على دولة الرومان بتأثيرهم الخلقى ، وأن العرب هم الذين فتحوا لأوروبا ما كانت تجهله من عالم المعارف العلمية والأدبية والفلسفية بتأثيرهم الثقافى ، فكانوا ممدنين لنا ستة قرون »^(١) .

هذا التراث الإسلامى المعلم الحصيب ، ما رعاه المسلمون حق رعايته ولا اهتموا به الاهتمام الذى يستحقه ، وإنما أصابه ما أصاب الدول الإسلامية من عوامل الضعف والتفكك ، فنذ بعدت الأمة الإسلامية عن دينها ومنهجها تمزقت وتفرقت وذهبت ريحها وأصبحت دويلات مبددة الشمل طمع فيها عدوها وسهل عليه أن يزدردوها واحدة واحدة ، وتوالت النكبات على العالم الإسلامى ، وأخذ ظله في التقلص ورقعته في الضيق ورجاله في الضعف والتخاذل ، وما أصاب التراث ليس أقل مما أصاب أصحابه وصانعيه . وقد أسهمت الحملات الصليبية المسعورة على مدى الفترة الزمنية التى استطاعت في أن

(١) جوستاف لوبون : حضارة العرب : ٥٧٧ - ٥٧٩ .

توجه لهذا التراث من الضربات ما يبدده ويحاول القضاء عليه بإتلافه حيناً والعيشه حيناً . حتى لم يفلت من أيديهم من هذا التراث إلا القليل .

وكذلك فعلت الخلافات السياسية والمذهبية التي عصفت بالأمة الإسلامية فعلها في هذا التراث ، فقد كان انتصار فريق على آخر أو حزب أو مذهب على مذهب كثيراً ما يصاحبه عدوان على كذب خصومهم وعلى تراشيم الفكرى والحضارى ، عدوان يصل إلى حد الإحراق والإتلاف والتدمير ، وقد يتصور بعض الناس أن هذا الإتلاف لم يزل سوى كذب الخصوم وحدهم ، ولكن ذلك التصور غير صحيح - على الرغم من أن الإتلاف كان يأتي على الكتب كلها مذهبية وغير مذهبية ، فتكون الحسارة عامة والكارثة الحضارية شاملة . كما يحدثنا التاريخ عن مكتبة العزيز بالله ، وعن أغلب دور الكتب الفاطمية بمصر عندما لقيت أفجع مصير بسقوط الدولة الفاطمية .

وإن الجيوش المتوحشة المتبريرة الآتية مما وراء النهر في أقصى الشرق بقيادة هولاء كوا لتكتسح أمامها كسيل جارف كل معالم الثقافة والحضارة في بخارى ونيسابور والرى وأصبهان ، متجهة إلى بغداد مدمرة محرقة مفرقة لألوف الكتب والكنوز من تراثنا ، ولولا أن صدت هذه الغارة المتوحشة الجبهة الإسلامية الموحدة آنشد من مصر والشام ، لقفزت تلك الحملة على كل كنوز العلم والمعرفة ولضيعت إلى الأبد روائع التراث ولاكتسحت أمامها العالم الإسلامى حتى تصل إلى الطرف الغربى للعالم الإسلامى على ساحل المحيط الأطلسى .

وكذلك كان حال التراث الإسلامى عندما تضعف أمر المسلمين في الأندلس فأصبحت دولتهم دولا وأمتهم أمتا وسقطوا في أيدي أعدائهم واحدة وراء الأخرى ، في أيدي الأسبان الذين ضربوا أفدح المثل في العصية الدينية والقومييات والعنقيات ، ووجهوا أحقادهم إلى صروح العلم والمعرفة يخربون ويدمرون . فأحرقوا خزائن الكتب ونفائس الذخائر العلمية ، بحيث لم يبق من هذا المجد العلمى الباذج للمسلمين في الأندلس إلا ما ذهب من قبل إلى

أوروبا أو إلى المشرق مع المهاجرين من المسلمين ، ومع طلاب العلم والتجار ،
أو ما أفلت من هذه المقتلة بفعل الصدقة وحدها .

ومن عجب أن هذا القليل الناجي قد تكون من بعضه مكتبة تعد الآن
من أشهر مكتبات أوروبا الحديثة التي تزخر بالمخطوطات العربية النادرة ، وهي
مكتبة الأسكوريال بمدريد .

وكذلك كان الحال بالنسبة للمكتبات الهائلة التي كونها خلفاء بني عثمان
(الدولة التركية العثمانية) وجمعوها بأساليب ربما لم تكن مقبولة في ذاتها ، فقد
استطاع الغالبون المتصرون على دولة الخلافة العثمانية أن يستولوا على هذه
المكتبات سرقة أو غصبا وأن يعبروا بها إلى معابر الدردنيل والبوسفور إلى الغرب
المتحالف على القضاء على دولة الخلافة .

ولم يكن حظ التراث الإسلامي في الظروف العادية - وقد أصاب العالم
الإسلامي التخلف والضعف - بابتعاد المسلمين عن دينهم ومنهجهم ، بأحسن
من حظه على أيدي الأعداء ، فقد هان عليهم أمر تراثهم وحضارتهم ، ونبتت
نابذة من أبناء المسلمين - في العصر الحديث - تهم هذا التراث بأنه يمثل
عصوراً غابرة متخلفة ، وتحمل إلينا من القيم ما لا يلائم حياتنا المعاصرة ،
ونبتت نابذة أخرى من المفتونين بالتقدم الصناعي الآلي في أوروبا توهم أن سر
تقدم أوروبا هو إهمالها للماضي ، وأن سر تأخرنا نحن المسلمين هو إهمالنا بهذا
الماضي ، وعلى الرغم من ضلال الفريقين وسخف ما يقولون وضيق أفقهم
وجهلهم بأن أوروبا الناهضة - في نظرهم - لم تنهض إلا باهتمامها بتراثها ،
على الرغم من ضلال هذا الرأي ، فإن التراث الإسلامي تأثر بآراء هذين
الفريقين وأصابه بعض الشلل وقل الاهتمام به إلى حد كبير .

لكن الأمل في عناية بعض الدول الإسلامية بالتراث كبير ، وقد أخذت
بعضها تسمى في الطريق نحو الاهتمام به وإحلاله المكانة اللائقة به .

والجدير باهتمامنا في هذا البحث أن نتحدث عن أثر المستشرقين في هذا

التراث ، وما قاموا به من أعمال نحوه ، ونحب أن ننبه - من باب الإنصاف والحيادية في إصدار الأحكام - إلى أن حركة الاستشراق في جملتها خدمت التراث من جانب وخدمت أغراضاً سياسية تبشيرية استعمارية من جانب آخر .

ففي الجانب الأول : جانب خدمة التراث الإسلامي كان من المشرقين الذين قاموا بالاهتمام بالتراث جمعه وتحقيقه ونشره من هو مخلص في عمله راغب في أن يحقق للإنسانية مكاسب وأرباحاً فكرية وحضارية - وهؤلاء قليلون - وكان منهم الحاقد على الإسلام والمسلمين الراغب في التشويه والتحريف والإساءة ، وهؤلاء الأخيرون هم أو بعضهم موضوع بحثنا هذا ، إذ أننا نتحدث عن حملاتهم المنظمة لتشويه التراث الإسلامي .

وفي الجانب الثاني : جانب خدمة أغراض سياسية تبشيرية استعمارية عن طريق التراث ، كان الهدف هو دراسة هذا التراث والتعرف على معالم تلك الحضارة بقصد التعرف والكشف عن طبيعة عقليات الشعوب التي صنعت هذا التراث وتلك الحضارة من الأمة الإسلامية ، ومعرفة طبائعهم وأمزجتهم ومواضع الضعف والقوة فيهم ، ودراسة ما يسوؤهم من عادات وتقاليد ، تمهيداً لشن الحملات السياسية عليهم سواء أكانت حملات تبشير بالنصرانية وتنصير لبعض المسلمين أو كانت حملات استعمارية للغزو العسكري المسلح أو حملات احتلال اقتصادي وتسلط على مقدرات تلك الشعوب بالوسائل المعروفة في ذلك الزمان ، وبخاصة في آسيا وأفريقيا ، وعلى وجه الخصوص في الشعوب المسلمة في تلك البلاد .

ونحن عندما نربط في هذا البحث بين الاستشراق والتبشير والاستعمار لا نبالغ ولا نعبء عن وجهة نظرنا وإنما ننقل عنهم أنفسهم اعترافات بهذا الرباط الوثيق بين الكنيسة والاستشراق والاستعمار .

ففي القرن السابع الهجري أخريات القرن الثاني عشر الميلادي كانت حركة الاستشراق الأولى تابعة للكنيسة الكاثوليكية وخاضعة لكبار أعيانها ، لا

تتحرك إلا بناء على توجيه منها . يقرر ذلك كاتب مسيحي مؤرخ هو :
« الفيكونت فليب دى طرازى » حين يقول :

« راح البابوات فى القرنين الثانى عشر والرابع عشر (م) يقرون قصاصهم
ورسلهم وورهبانهم بتعلم العربية ترويحاً لحظتهم الكاثوليكية ، وقرر مجتمع فينا
المنعقد سنة ١٣١١ هـ بزيارة البابا « إقليميس الخامس » أن تؤسس دروس
عربية وعبرية وسريانية فى روما على نفقة الحبر الأعظم . وفى باريس على
نفقة الملك ، فى اكسفورد وبولان على نفقة الرهبان ، وذلك لكى يكون منهم
المبشرون والوعاظ الذين يطوفون بالبلاد الشرقية وكان سفراء الفاتيكان مكلفين
من قبل البابا بمراقبة دروس العربية . ويعدون من المآثر الباقية للبابا « لادن
العاشر » أنه احتفل سنة ١٥١٤ م بافتتاح أول مطبعة عربية فى مدينة فانو على
ساحل الأدرياتيك .

وقد جد رجال الكنيسة فى الحصول على كتب التراث الإسلامى ، فكانت
بعثاتهم تطوف بالشرق الإسلامى من مصر والشام والعراق إلى ما وراء النهر
والهند يشترون أندر المخطوطات ..

وتبارى اتباعهم من رجال « الإكليروس » الشرقى لانتحاف مكتبة الفاتيكان
بنفائس الذخائر العربية ، وبلغ ما زود به الكاردينال « فردريك رئيس أساقفة
ميلانو مكتبة الأميروزيانا من ذخائر العرب ألوفاً عدة ، ثم جاء الأب « واقى »
فأضاف إلى ثروتها من هذه الذخائر ستة آلاف مخطوط » (١) .

وأن المستشرق المشهور ليون كايبنافى (١٨٦٩ - ١٩٢٦ م) الذى بذل
الأموال الطائلة على طبع كتابه المعروف فى تاريخ حركة الفتح الإسلامى
المسمى « حوليات الإسلام » ليعطينا الدليل على هدفه الحقيقى من تأليف
كتابته : « حوليات الإسلام » ومن عمله فى التراث الإسلامى بصفة عامة

(١) دى طرازى : خزائن الكتب : ٥٧٧/٢ - ٥٨٠ .

وإنفاقه تلك الأموال الطائلة من أجل جمعه وتحقيقه ونشره ، نفهم ذلك من مقدمة كتابه ذاك ، حيث يقول في المقدمة : أنه إنما يريد أن يفهم من عمله ذاك سر المصيبة الإسلامية : « كاتاستروفيكاً إسلاميكاً » التي انتزعت من الدين المسيحى ملايين من الأتباع في شتى أنحاء الأرض ما يزالون يدينون برسالة محمد (صلى الله عليه وسلم) ويؤمنون به « نبياً ورسولاً »^(١) .

ولم يكن كابتائى وحده في هذا الشعور نحو التراث الإسلامى أو نحو الإسلام والمسلمين . وإنما كان هو الصريح من بين المستشرقين . وإن كانت صراحة محدودة أيضاً .

وإن الناظر إلى التاريخ السياسى الحديث : وإلى تاريخ استعمار العالم الإسلامى في العصر الحديث . وإلى تاريخ استعمار العالم العربى على وجه الخصوص ليدرك بغير عناء أن حركة الاستشراق واكبت وسأيرت حركة الاستعمار بل مهدت لها في كثير من البلاد . وليس من الحق على أحد من المثقفين أن أول جماعة أسست لخدمة الاستشراق والانتفاع بمجهود رجاله سياسياً . قامت في فرنسا سنة ١٢٠٢ هـ - ١٧٨٧ م تحت إشراف وزارة المستعمرات . وأن هذه المسيرة وهذا التمهيد للاستعمار هو الذى جعل حركة الاستشراق كلها - إلا في القليل النادر - موضع الشك والريبة . وهو الذى انحرف بها عن الجادة وحاد بها عن الحق وآداب البحث العلمى التزبه . وهذا هو ما نغنيه بتشويه التراث الإسلامى كوسيلة من وسائل الغزو الفكرى الحبيث الذى يفقد المسلمين ثقتهم في كتابهم وسنة رسولهم صلى الله عليه وسلم . وتاريخهم ونظام حياتهم وتراثهم .

ولا نستطيع في هذا البحث أن ندلل على تشويههم للتراث الإسلامى بكل الوسائل التى قاموا بها في هذا المجال . لأن مثل هذا الاستيعاب بالغ العصر

(١) عائشة عبد الرحمن . تراثنا بين ماضى وحاضر : ٥١ مل دار المعارف القاهرة .

من جانب ، وغير ممكن في إطار هذا البحث من جانب آخر ، لا سيما إذا وضعنا في الاعتبار أنهم شوهوا التراث الإسلامي بوسائل عديدة وفي ظروف متعددة وفي ألوف من الكتب والبحوث والنشرات ، من أجل هذا سوف نكتفي بالإشارة الدالة واللمحة المعبرة والاستشهاد ، وهو أمر جعلنا نقصر الحديث هنا في مجال تشويه التراث الإسلامي ، على مستشرقين اثنين لكل منها صلة وثيقة بتشويه التراث الإسلامي من جانب ، ولكل منها مكانة مرموقة عند كثير من الدارسين مسلمين وغير مسلمين من جانب آخر .

هذان المستشرقان هما : -

- ١ - الأمير الإيطالي : ليون كايتاني (١٨٦٩-١٩٢٦ م) أحد كتاب دائرة المعارف الإيطالية .
- ٢ - يوسف شاخت : (١٩٠٢ -) المستشرق الألماني وأحد كتاب دائرة المعارف الإسلامية .

أما الأمير الإيطالي : ليون كايتاني فهو معدود من أكبر المستشرقين - بل أكبر مستشرق في التاريخ العربي^(١) .

وقد سبق أن قلت آنفاً : أن مقدمة كتابه «حوليات العالم الإسلامي» قد اشتملت على تصريح له خلاصته : أنه يقوم بهذا العمل الضخم في التاريخ للإسلام ، ليفهم سر «المصيبة الإسلامية» التي انتزعت من المسيحية أتباعها .

ولنا أن نشاءل حول ما يكتبه كايتاني عن الإسلام أهذه الكتب قيمة علمية موضوعية ؟ أله تلك القيمة وهو صادر من رجل حاقده سلفاً ؟ .

وإن نظرة إلى الكتب التي ألفها كايتاني لتدلنا على هدفه الذي يريد أن يصل إليه من وراء ذلك العمل المضني ، فهو قد أتفق ماله - حتى أفلس - وفرغ نفسه وضخى بوقته كله في سبيل العلم - كما يقولون - وجعل همه البحث

(١) نجيب عتيق : ١ / ٣٧٢ ط دار المعارف - القاهرة .

في تاريخ الإسلام وحركته ، لا شيء إلا ليفهم «سر المصيبة الإسلامية» كما قلنا .

ومن أشهر كتبه وبحوثه :

- ١- نحو الشخصية الإسلامية (العالم الإسلامي ١٩١١ م) .
- ٢- انتشار الإسلام وتطور الحضارة (العلوم ٦ بولونيا عام ١٩١٢ م) .
- ٣- دراسة التاريخ الشرق : سيرة الرسول (ميلانو ١٩١٤ م) .
- ٤- تاريخ الإسلام من العام الأول الهجري إلى عام ٩٢٢ هـ (٦٢٢-١٥١٧ م)

فكانت الحقبة الأولى من العام الأول الهجري إلى عام ١٣٢ هـ في خمسة مجلدات ١٧٣٠ صفحة (باريس - روما من ١٩١٢ إلى ١٩١٨ م) .

وتاريخ البحر الأبيض المتوسط والشرق الإسلامي في سنة ١٣٣ هـ إلى ١٤٤ هـ في ٣٣٤ صفحة (مؤسسة كايثاني - مجمع لنشاي روما ١٩٢٣ م) .

وحوليات الإسلام ، من المجلد الخامس إلى المجلد العاشر في ٣٢٠٦ صفحات (ميلانو - روما من سنة ١٩١٢-١٩٢٦ م) ^(١) .

وفي كل ذلك الذي كتبه كايثاني عن الإسلام وتاريخه وتاريخ النبي صلى الله عليه وسلم ، لم تفارقه روح التعصب ، ولا الرغبة في التشويه ، ولم تفارقه أبداً - كما قال هو عن نفسه - الرغبة الملحة في التعرف على «سر المصيبة الإسلامية التي انتزعت المسلمين من المسيحية» .

ولننظر كيف يعث «كايثاني» بالتراث الإسلامي عبث الحاقق التعصب الذي أعمته الكراهية «للمصيبة الإسلامية» على حد قوله ..

في كتابه (الحوليات الإسلامية) في الجزء الأول منه فصل بعنوان :

(ملاحظات نقدية عن القيمة التاريخية لأقدم ما روى من السنة عن شئون الرسول (صلى الله عليه وسلم) ..

وأنا هنا أنقل عن دائرة المعارف الإسلامية حيث يعلق المرحوم أمين الخولى على «مادة أصول» التى حررها المستشرق الألمانى يوسف شاخت فى الدائرة :
فى هذا الفصل عرض - كائتانى - للسنة سندها ومثنها بما عرض له .
وكان مما جاء فى نقد المتن قوله فى آخر الفقرة (١٥) عمن بعد الصدر الأول من المحدثين ما ترجمته :

«كل قصد المحدثين ينحصر فى واد جذب محل . من سرد الأشخاص الذين نقلوا المروى . ولا يشغل أحد نفسه بنقد العبارة والمثن نفسه» .

وفى الفقرة (١٦) يقول : «لكن إذا كان الإسناد كامل النظام محتوياً أسماء حسنة . استبعد كل اشتباه وسوء ظن» .

وفى الفقرة (١٨) يقول : «سبق أن قلنا إن المحدثين والنقاد المسلمين لا يحسرون على الاندفاع فى التحليل النقدى للسنة إلى ما وراء الإسناد ، بل يمتنعون عن كل نقد للنص . إذ يرونه احتقاراً لمشهورى الصحابة وقحة ثقيلة الخطر على الكيان الإسلامى» ..

ثم يواصل قوله فيقول : «إذا كان الإسناد من الصحاحى فى النهاية حتى يؤلف المجموع الحديثى (بخارى أو مسلم مثلاً) كان الأساس قوياً . وصار نص السنة قسماً من الوحي الإلهى ولذلك لا يناقش . فإن كان الإسناد على غير نظام كان النص تقريباً كذلك . ولا يمكن اعتباره موثقاً به . ولذا فأى امتحان له غير مفيد من هذا الارتباك الغريب . ومن ذلك الخلط بين الإنسانى - - يعنى السند - والاهى - يريد السنة المروية - نشأت كل الأغلاط فى السنة الإسلامية» .

هذا هو عبث «كائتانى» بالتراث الإسلامى . وذلك مبلغ حرصه على

التحقيق والتدقيق والتوثيق ذلك هو كائتاني الذي يثق فيه كثير من الباحثين مسلمين وغير مسلمين .

يقول المرحوم أمين الخولي تعليقاً على كلام « كائتاني » الذي نقلنا : ثم يطيب في هذا المقام بما لا يتجاوز هذه المعاني :

وها هو ذا كاتب مادة أصول يقول هنا : « ومن المهم أن نلاحظ أنهم أخفوا تقديمهم لمادة الحديث وراء تقديمهم للإسناد نفسه » وهو مخفف بما قاله « كائتاني » آنفاً - ..

ثم جاز هذا المعنى إلى الشرق . فقال الأستاذ أحمد أمين في الجزء الثاني من ضحى الإسلام . ما هو تسليم بجملة هذه الملاحظة إذ يقول : « وفي الحق إن المحدثين عنوا عناية تامة بالنقد الخارجي - يريد نقد السند - ولم يعنوا هذه العناية بالنقد الداخلي » . ثم يقول : « ولكنهم لم يتوسعوا كثيراً في النقد الداخلي . فلم يعرضوا لمتن الحديث هل ينطبق على الواقع أولاً ؟ » ثم يعلق أمين الخولي على كلام أحمد أمين فيخطئه بما لا نرى داعياً لذكره هنا .

فترى قول « كائتاني » : إذا كان الإسناد كامل النظام استبعد كل اشتباه » وقوله : إذا كان الإسناد من الصحاحى حتى مؤلف المجموع السنى كان نص السنة قسماً من الوحي الإلهي ولذا لا يناقش الخ » .

فترى هذه الأقوال وما يشبهها في كلامه من تقرير دوران قوة الحديث مع قوة السند وجوداً وعندما تنقضها قاعدة مشهورة عند علماء أصول الرواية هي قولهم : واعلم أنه لا تلازم بين الإسناد والمتن إذ قد يصح السند أو يحسن لاستجماع شروطه من الاتصال والعدالة وال ضبط ، دون المتن لشذوذ أو علة وقد لا يصح السند ويصح المتن من طريق آخر « الأجهورى » : حاشيته على شرح البيهقيونية ص ٢٦ ، ٢٧ : وهي قاعدة مشهورة توجد في المختصرات الصغيرة لمصطلح الحديث ، ونقضها لعبارات كائتاني واضح لا يعوزه الشرح .

ثم نرى قوله أيضا : « ما من أحد شغل نفسه بنقد النص نفسه » وقوله :
« ان المحدثين والنقاد المسلمين لا يجسرون على الاندفاع في التحليل النقدي
للسنة الى ما وراء الإسناد » بل يمتنعون عن كل نقد للنص الخ » فترى أن
أشياء كثيرة من عمل المحدثين تبطل هذا القول منها :

١ - ما أسلفناه من صريح قولهم في عدم ربط السند بالمتن وذكر أشياء تؤثر
على المتن بعد صحة السند كالشذوذ مثلا وسنعود إليه بكلمة قريبا .

٢ -- إعطاؤهم الحديث القابا اصطلاحية من صفات خاصة بالمتن دون السند
كتسميتهم الحديث « بالشاذ » أو « المقلوب » أو « المضطرب » أو « مدرج
المتن » أو « المحرف » أو « المصحف » ونحو ذلك من أسماء لا مرد لها الا
اعتبارات في المروى نفسه تبين في علم الحديث دراية ولا نطيل بشرحها .

٣ - وضعهم قواعد لنقد المتن تصل من الحرية العقلية إلى حد بعيد ، وتقوم حيناً
على اعتبارات عقلية صرفة ، وحيناً على معان أدبية فنية ، وحيناً تعتمد على
مقررات شرعية .

أ - فبن الاعتبارات العقلية الجريئة . أن كل خبر يناقض صريح
العقل . حيث لا تأويل فهو باطل - على القارى وابن حجر
المسقلاني - شرح نخبه الفكر ص ١٢٦ . ١٢٧ . وحسب عشاق
الحرية العقلية الصحيحة أن من المقررات الإسلامية إخضاع نص
القرآن نفسه للعقل على سبيل الافتراض - وقولهم : لو تعارضت آية
ودليل عقل فإن الدليل العقل يكون حاكما عليها الآمدى : الأحكام
ج ٣ ص ٢٢٦ .

ب - ومن المعاني الغنية التي حكموها في نقد السند اعتبارهم ركافة
اللفظ للحديث أو ركة معناه علامة على وضعه .. الخ ..

ج - ومن الاعتبارات الدينية التي تقوم على جعل المقررات الشرعية وحدة معقولة متماسكة متوافقة أن عدّوا من علامات وضع الحديث مخالفة القرآن أو السنة المتواترة أو الإجماع القطعي .. الخ - النخبة وشرحها في الموضوع السابق .

٤ - إنهم نقدوا المتون الدينية بالفعل نقدا مطبقا على الأصول النظرية السابقة التي قرروها . ومن حسن الاتفاق أن قد سقنا لذلك كله أمثلة من نقد المتن في التعليقة الأولى من تعليقنا على هذه المادة . وهي الخاصة بما يروى من سبب نزول آية ٥٢ من سورة الحج .

يقول كايثاني بعد هذا لهؤلاء إنهم لم يجرؤوا على الاندفاع في النقد إلى ما وراء السند . أو يقول شاخت إنهم أخفوا نقدهم لمادة الحديث وراء نقدهم للسند ؟^(١) .

هذا ما فعله كايثاني من عبث بالتراث الإسلامي . وهو أنموذج واحد من مشاتل النماذج التي يمكن أن يحصل عليها الدارس لكتبه وبحوثه عن الإسلام والمسلمين .

وأما يوسف شاخت (١٩٠٢ م -) فإنه قد اشتهر بين المستشرقين بدراسة التشريع الإسلامي والحديث عن نشأته وتطوره وتأثره وأثره - كما يقول نجيب عفي في كتابه : « المستشرقون »^(٢)

(١) دائرة المعارف الإسلامية : ٤٩٦ / ٣ . ٤٩٧ - تعليق المرحوم أمين الحولي .

(٢) نجيب عفي : المستشرقون : ٨٠٣ / ٢ .

وقد عبث يوسف شاخت ماشاء له العبث بالتراث الإسلامى . محاولا أن ينقّس في هذا العبث عن أحقاده على الإسلام والمسلمين . ويكنى هنا - في هذا المجال المحدود من البحث -- أن نذكر ما قاله في مادة «أصول» التي كتبها في دائرة المعارف الإسلامية .

جاء في الفقرة الثالثة مما كتبه «شاخت» في مادة «أصول» ما نصه :

«وبموت النبي (صلى الله عليه وسلم) انتهى بالطبع التشريع الذي كان يقوم على التتزيل أو على حجية النبوة . وكان من الطبيعي أن يحاول الخلفاء الأول السير بالأمة الإسلامية على سنة منشأ مسترشدين في ذلك برأى كبار صحابة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وكانت المبادئ التي استرشدوا بها هي ما ورد في الكتاب وما صح من أحكام الرسول (صلى الله عليه وسلم) فيما لم يرد له ذكر في الكتاب . ومما حاولوا بسط هذه المبادئ المحدودة نوعا ما . انتهى بهم الأمر إلى التوسع في تأويلها توسعا خرج بها عن معناها الأصلي . وربما كان سببا في ظهور أحاديث جديدة .

وفي الوقت نفسه لم يكن الخلفاء باعتبارهم رؤساء للدولة وخلفاء للنبي (صلى الله عليه وسلم) محرومين من الجهود التشريعية بل ومن تغيير أحكام النبي (صلى الله عليه وسلم) .. (انظر ما سبق) .

وربما صح تاريخيا ما تقوله الروايات من أن أبا بكر كان يحتذى حذو النبي (صلى الله عليه وسلم) في هذا الأمر بينما كان عمر أكثر ميلا إلى التعديل والتغيير على أن الصلة بالقانون العرفي ظلت كما هي دون تغيير حتى بعد أن تعرض لكثير من المؤثرات الأجنبية نتيجة للفتوح العظيمة في العراق والشام ومصر» .

وفي الفقرة الرابعة من هذا البحث يقول :

«ولما جاء بنو أمية وانتقل مقر الحكم إلى دمشق . فقدت جماعات المؤمنين في المدينة - التي كانت مقر الحكم قبل ذلك - كل نفوذ فعلي في أمور

الحكومة ، فأخذوا يكرسون أنفسهم في حمية وحجاسة لتصوير المثل الأعلى لما يجب أن تكون عليه الأشياء - وكان ذلك المثل مباناً لما كانت عليه في الواقع .

وكان القانون العرفي يسود أقاليم الخلافة المتعددة دون منازع ، ويتطور جنباً إلى جنب مع النظام الفعلي للقضاء - وذلك لأن خلفاء بني أمية إلى عهد عمر بن عبد العزيز كانوا بوجه عام لا يميلون كثيراً إلى تغيير ذلك القانون العرفي وإنشاء مقاييس تنهض على أساس ديني .

وقامت مبادئ التشريع الإسلامي لأول مرة في المدينة ثم في العراق والشام وأولئك الرجال الصالحون الذين عملوا بادئ الأمر دون أن تكون لهم خطة مرسومة أو منهج معين . كانت غايتهم تصحيح مادة القوانين التي كانت موجودة عند ذاك ، والتوفيق بينها وبين مبادئ الدين الإسلامي وسلوكها في نظام خاص ، واستمدوا آراءهم الدينية من الكتاب والحديث اللذين كانوا يتقيدون بهما ، وكانوا يحتجون أيضاً بأقوال الصحابة وأفعالهم (صحيحها ومنحولها) ^(١) .

ثم يعلق المرحوم أمين الخولي على ما كتبه شاخت تعليقا شافيا ننقل منه ما يأتي :

«أول ما يلاحظ أن الكاتب في كلامه هنا عن أقوال الصحابة وأفعالهم يضع بين قوسين كلمتي صحيحها ومنحولها كما أنه عندما يذكر فيما بعد هذا بقليل سنة محمد (صلى الله عليه وسلم) التي ينهض الجانب الأكبر من الفقه الإسلامي عليها . يتوخى كذلك أن يضع بين القوسين كلمتي صحيحها وزائفها فهذا الحرص المريب لا يقوم على أساس من النظر العلمي لأنه إن أراد من هذا القول أن الفقهاء قد فات في تقديمهم للسنة شيء من المنحول والزائف

(١) دائرة المعارف الإسلامية : ٤٩٣/٣ .

فجائز عقلا أن يكون ذلك ولا يقول بعصمة الفقهاء أحد ، ولكن ليس هكذا يطلق القول ، على أن الكاتب لم يبين قوله هذا بمثال ، وإن أراد من هذه العبارة أنهم قصدوا إلى التحول والزائف فاعتمدوا عليه فهذا باطل لا يهتم به أحد وإن أراد ادعائه فليس بهذه السهولة يلقي ويكرر !! فعليه أن يوضح قوله ويحتج له .

ونعود بعد ذلك إلى قوله : من أقوال الصحابة وأفعالهم فهو يذكر : أنهم كانوا يحتجون بأقوال الصحابة وأفعالهم الخ ، وهذا ليس صحيحا ، لأن أقوال الصحابة من حيث هي أقوال الصحابة لا يحتج بها وإنما يحتج بها من حيث هي سنة عن الرسول عليه السلام ، والأصوليون في الأخذ بها قد جزوا على دقتهم ، ففرقوا الفرق العميق بين عبارات الأداء لهذه الأقول ، واختلفوا حولها ، فعندهم : أن قول الصحابي : قال رسول الله كذا مما يختلف في أنه عن النبي أولا ، وقول الصحابي : سمعت رسول الله يأمر بكذا وينهى عن كذا مما يختلف في كونه حجة ، وقوله : من السنة كذا قد اختلف في حمله على سنة الرسول ، . الآمدى الأحكام ج ٢ ص ١٣٥ - ١٣٩

ثم مذهب الصحابي المجتهد قد اتفقوا على أنه لا يكون حجة على غيره من الصحابة المجتهدين ولو كان إماماً أو حاكماً أو مفتياً ، واختلفوا في كونه حجة على التابعين ومن بعدهم من المجتهدين ، والمختار أنه ليس بحجة مطلقا ، ثم بعد القول بأن مذهب الصحابي ليس حجة واجبة الاتباع ، قد اختلفوا في أنه يجوز لغيره من المجتهدين تقليده أولا ، والمختار امتناع ذلك مطلقا ،^(١)

وهذا ابن حزم يضع الصحابة في رأس من لا يقلد ، فيقول بعباراته القوية المعروفة : ..أوجد - أي الإنسان - نفسه تحكم فيما نازعت فيه أحداً

(١) الآمدى : الإحكام في أصول الأحكام ٤٨٥/٢ - ٤٨٦ و ٢٠٨/٤ - ٢٠٩ .

دون رسول الله صلى الله عليه وسلم من صاحب فن دونه فليعلم أن الله تعالى قد أقسم - يريد قوله تعالى : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت » الآية - وقوله الحق أنه ليس مؤمنا ، وصدق الله تعالى وإذا لم يكن مؤمنا فهو كافر ، ولا سبيل إلى قسم ثالث ، وليعلم أن كل من قلد من صاحب أو تابع : أن مالكا وأبا حنيفة والشافعي وسفيان ، والأوزاعي وأحمد وداود رضي الله عنهم متبرئون منه في الدنيا والآخرة ويوم يقوم الأشهداء ابن حزم : الأحكام ج ١ ص ٩٩ .

وليس القول في أفعال الصحابة على غير هذا التقدير لأقوالهم لا احتجاج بهذه الأفعال من حيث هي أفعال صحابة ، إلا أن يتعلق الكاتب في ذلك بما يذكره المالكية من عمل أهل المدينة ، كما يشير إليه بعد ، وليس النظر لهذا العمل من حيث هو عمل الصحابة خاصة ، فلا وجه معروف لما ذكرناه ^(١) .

وبعد : فهذان أنموذجان لعبث المستشرقين بالتراث الإسلامى ، وهم بعد ذلك ينشرون هذا العبث في لغاتهم ثم يتخذونه بعض الدارسين مسلمين وغير مسلمين مراجع ذات أهمية كبيرة ، وذات ثقة ربما لم تكن محدودة في نظر هؤلاء الدارسين ، كما رأينا منذ قليل كيف نقل عنهم أحمد أمين على النحو الذى ذكره المرحوم أمين الحولى .

ولا أحب أن أنهى هذا الفصل من البحث دون أن ألقى ضوءا على الاستشراق أسبابه ومظاهره لما له من صلة بتلك التيارات .

أما أسباب الاستشراق فإن أبرزها سبب ديني في الدرجة الأولى ، فقد تركت الحرب الصليبية في نفوس الأوروبيين ما تركت من آثار مرة عميقة .

وجاءت حركة الإصلاح الدينى المسيحى فشمع المسيحيون : برونستانت

(١) دائرة المعارف الإسلامية : ٤٩٣/٣ - ٤٩٤ ط دار الشعب - القاهرة .

وكاثوليك . بحاجات ضاغطة لإعادة النظر في شروح كتبهم الدينية . ولحاجة تفهمها على أساس التطورات الجديدة التي تمخضت عنها حركة الإصلاح . ومن هنا انجهوا إلى الدراسات العبرانية . وهذه أدت بهم إلى الدراسات العربية فالإسلامية . لأن الأخيرة كانت ضرورية لفهم الأولى . وخاصة ما كان منها متعلقا بالجانب اللغوي . وبمرور الزمن اتسع نطاق الدراسات الشرقية حتى شملت أديانا ولغات وثقافات غير الإسلام وغير العربية»^(١) .

ومن هذه الأسباب «رغبة المسيحيين في التبشير بدينهم بين المسلمين . فدعاهم ذلك إلى الإقبال على الاستشراق ليتسنى لهم تجهيز الدعاة وإرسالهم للعالم الإسلامي . وقد التفت مصلحة المبشرين مع أهداف الاستعمار فكان لهم واعتمد عليهم في بسط نفوذهم في الشرق . وقد أوقع المبشرون زعماء الاستعمار بأن المسيحية ستكون قاعدة الاستعمار الغربي في الشرق . وبذلك سهل الاستعمار للمبشرين مهمتهم وبسط عليهم حمايته . وزودهم بالمال والسلطان . وهذا هو السبب في أن الاستشراق قام في أول أمره على أكتاف المبشرين والرهبان ثم اتصل بالاستعمار»^(٢) .

وبجانب هذا وذاك . كان هناك أسباب أخرى فرعية لنشأة الاستشراق : أسباب تجارية . وأسباب سياسية . «ودبلوماسية» . وأسباب شخصية مزاجية عند بعض الناس الذين تهباً لهم الفراغ والمال واتخذوا الاستشراق وسيلة لإشباع رغبتهم الخاصة في السفر أو في الاطلاع على ثقافات العالم القديم . ويبدو أن فريقاً من الناس دخلوا ميدان الاستشراق من باب البحث عن الرزق عندما ضاقت بهم سبل العيش العادية . أو دخلوه هاربين عندما قعدت بهم إمكانياتهم الفكرية عن الوصول إلى مستوى العلماء في العلوم الأخرى . أو دخلوه تخلصاً من مسئولياتهم الدينية المباشرة في مجتمعاتهم المسيحية . أقبل

(١) نيب عفيق : المشرقون مقدمة الجزء الأول .

(٢) د . محمد البهي : الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الأوربي ١٩٣٣ .

هؤلاء على الاستشراق تربة لذهمت الدينية أمام إخوانهم في الدين . وتغطية لعجزهم الفكري . وأخيراً بحثاً عن لقمة العيش إذ أن التنافس في هذا المجال أقل منه في غيره من أبواب الرزق^(١)

وهناك ملاحظة لبعض الباحثين تتعلق بالمستشرقين اليهود خاصة . فالظاهر أن هؤلاء أقبلوا على الاستشراق لأسباب دينية - وهي محاولة إضعاف الإسلام والتشكيك في قيمه بإثبات فضل اليهودية على الإسلام بادعاء أن اليهودية في نظرهم هي مصدر الإسلام الأول . ولأسباب سياسية تتصل بخدمة الصهيونية : فكرة أولاً ثم دولة ثانياً . هذه وجهة نظر ربما لا تجد مرجعاً مكتوباً يؤيدها غير أن الظروف العامة والظواهر المترددة في كتابات هؤلاء المستشرقين تعزز وجهة النظر هذه . وتخلع عليها بعض خصائص الاستنتاج العنمي .

وقد تركت أهداف الاستشراق مع تنوعها أخيراً في خلق التخاذل الروحي وإيجاد الشعور بالنقص في نفوس المسلمين والشرقيين عامة . وعملهم من هذا الطريق على الرضا والخضوع للتوجيهات الغربية^(٢) .

من أسباب الاستشراق ما أشار إليه مؤلفا : التبشير والاستعمار حيث قالوا : «ومن المبشرين نفر يشتغلون بالآداب العربية والعلوم الإسلامية أو يستخدمون غيرهم في سبيل ذلك . ثم يرمون كلهم مما يكتبون إلى أن يوازنوا بين الآداب العربية والآداب الأجنبية . أو بين العلوم الإسلامية والعلوم الغربية (التي يعدونها نصرانية ، لأن أمم الغرب بالنصرانية) ليخرجوا دائماً بتفضيل الآداب الغربية على الآداب العربية والإسلامية . وبالتالي إلى إبراز نواحي النشاط الثقافي في الغرب وتفصيلاً على أمثالها في تاريخ العرب والإسلام . وما غايتهم

(١) نجيب عفيف : المستشرقون : ج ١ ص ١٩ ، ٢٨ ، ٤٠ .

(٢) محمد الهبي : الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الأوربي ٥٣٤ .

من ذلك إلا تحاذل روعى وشعور بالنقص في نفوس الشرقيين وحملهم من هذا الطريق على الرضا بالخضوع للمدنية المادية الغربية^(١).

تلك أسباب الاستشراق كما تحدث عنها الكتاب مسيحيون ومسلمون ،
وهي أسباب مجملّة يحتاج كل منها إلى إسهاب وتفصيل .

أما مظاهر الاستشراق وأنشطته فهي كثيرة يمكن أن نشير إليها على النحو
التالى : -

« حاول المستشرقون أن يحققوا أهدافهم بكل الوسائل : ألّفوا المحاضرات
والدروس و « بشروا » بالمسيحية بين المسلمين وجمعوا الأموال وأنشأوا الجمعيات
وعقدوا المؤتمرات . وأصدروا الصحف . وسلّكوا كل مسلك ظنّوه محققاً
لأهدافهم .

وهذه نماذج من صور نشاطهم المتعدد الجوانب :

١ - فى عام ١٨٨٧ م أنشأ الفرنسيون جمعية للمستشرقين ألّفوها بأخرى فى
عام ١٨٢٠ م وكان إصدار « المجلة الآسيوية » .

٢ - فى لندن تأسست جمعية لتشجيع الدراسات الشرقية فى عام ١٨٢٣ م .
وقبل أن يكون الملك ولي أمرها .. وأصدرت « مجلة الجمعية الآسيوية
الملكية » .

٣ - فى عام ١٨٤٢ م أنشأ الأمريكيون جمعية ومجلة باسم « الجمعية الشرقية
الأمريكية » وفى العام نفسه أصدر المستشرقون الألمان مجلة خاصة بهم .
كذلك فعل المستشرقون فى كل من النمسا وإيطاليا وروسيا .

٤ - ومن المجلات التى أصدرها المستشرقون الأمريكيون فى هذا القرن « مجلة جمعية
الدراسات الشرقية » وكانت تصدر فى مدينة « جامبير » بولاية « أهايو » ولها

(١) المثلث والآخر : التبشير والاستعمار : ص ١٧ .

فروع في لندن وباريس ولييزج ، وتورونتو في كندا ، ولا يعرف إن كانت تصدر الآن ، وطابعها العام على كل حال طابع الاستشراق السياسى وإن كانت تعرض من وقت لآخر لبعض المشكلات الدينية ، وخاصة في باب الكتب .

٥ - ويصدر المستشرقون الأمريكيون في الوقت الحاضر : «مجلة شئون الشرق الأوسط» وكذلك «مجلة الشرق الأوسط» وطابعها على العموم الاستشراق السياسى كذلك .

وأخطر المجلات التى يصدرها المستشرقون الأمريكيون في الوقت الحاضر هى مجلة «العالم الإسلامى» أنشأها صموئيل زويمر في سنة ١٩١١ م . وتصدر الآن من هارتفورد بأمريكا ورئيس تحريرها كنيث كراج وطابع هذه المجلة تبشيرية سافر .

وللمستشرقين الفرنسيين مجلة شبيهة بمجلة «العالم الإسلامى» فى روحها وانجاسها العدائى التبشيرية واسمها أيضاً *Le Monde Musulmon*

ولعل أخطر ما قام به المستشرقون حتى الآن هو إصدار «دائرة المعارف الإسلامية» بعدة لغات . وكذلك إصدار موجز لها بنفس اللغات الحية التى صدرت بها الدائرة . وقد بدأوا فى الوقت الحاضر فى إصدار طبعة جديدة تظهر فى أجزاء . ومصدر الخطورة فى هذا العمل هو أن المستشرقين عبأوا كل قواهم وأقلامهم لإصدار هذه الدائرة وهى مرجع لكثير من المسلمين فى دراساتهم على ما فيها من خلط وتحريف وتعصب سافر ضد الإسلام والمسلمين .

واستطاع المستشرقون أن يتسللوا إلى الجمع اللغوى فى مصر . والجمع العلمى فى دمشق والجمع العلمى فى بغداد .

ويعتمد المستشرقون - فيما يعتمدون - على عقد المؤتمرات العامة من وقت

لآخر لتنظيم نشاطها . وأول مؤتمر عقده كان في سنة ١٧٨٣ م وما زالت مؤتمراتهم تتكرر حتى اليوم .

وفي العصر الحديث تقوم المؤسسات الدينية والسياسية والاقتصادية في الغرب بما كان يقوم به الملوك والأمراء في الماضي من الإغداق على المستشرقين . وحبس الأوقاف والمنع على من يعملون في حقل الاستشراق .

وانتج المستشرقون والمبشرون بمعاونة الاستعمار إلى مجال التربية . محاولين غرس مبادئ التربية الغربية في نفوس المسلمين حتى يشبوا « مستغربين » في حياتهم وتفكيرهم . وحتى تخف في نفوسهم موازين القيم الإسلامية (انظر ص ١١٤ من مجلة « الإسلام » الصادرة في ١٦ من مارس سنة ١٩٥٨ م)^(١)

(١) د . محمد البهي : الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الأوربي : ٥٣٥ ٥٣٧ ط
دار الفكر . بيروت .

الفصل الثاني

حملات التغريب الموجهة ضد الاسلام

وتشمل:

- ١- تغريب التعليم والثقافة
- ٢- تغريب الحياة الاجتماعية

حملات التغريب الموجهة ضد الإسلام

. نتحدثنا عن حملات التشويه الموجهة ضد الإسلام فيما سبق من البحث .
حديثاً - وإن بدا مسهباً - رأيناه من ضرورات البحث ومتطلباته : كما
تصورنا ..

وتحدث الآن عن حملات أخرى لا تقل ضراوة عن حملات التشويه .
وهي حملات التغريب للإسلام ، فكره وتاريخه وحضارته ..
ونعني بهذا التغريب تأثير الغرب فكره وحضارته في المسلمين .

وهذا التغريب مجموعة من الدراسات والأعمال والثقافات والنظم تجرى حول
المسلمين وتطبق على مجتمعاتهم فتؤدى بهم في النهاية إلى أن يتشبعوا بالفكر الغربى
والحضارة الغربية المعادية للإسلام ، أو يكونوا تحت تأثير هذه الحضارة بحيث
تخترعهم وتقضى على شخصياتهم وعلى ولائهم لدينهم .

وهذا التغريب حملة خُطط لها بذكاء ودُبر لها بلبيل ، وهي من حيث المراحل تأتى -
كما أتصور - في أعقاب حملات التشويه ، لأن من يشوهون الإسلام على النحو الذى
ذكرناه فيما سلف من البحث إنما يعملون من أجل أن يكون هذا التشويه خطوة أولى تتلوها
خطوات ، من أولى هذه الخطوات - كما أتصور - تغريب المسلمين بتحويل ولائهم للغرب
ونظمه وعاداته وتقاليده ، بعد صرفهم عن الإسلام الذى شوه لهم إلى هذا الحد الذى
تحدثنا عنه آنفاً ، فليس أقرب إلى الارتقاء في حضارة الغرب من قوم فقدوا قنصلهم في دينهم
ومنهج حياتهم ونظامها ..

ولو شئنا أن نزيد الأمر وضوحاً على وضوحه لقلنا : إن الاستشراق بأعماله قد مهد للتبشير وألقى له البذرة في التربة وأن التبشير مهد للاستعمار وسقى البذرة ورعاها حتى أبنت وحان قطافها وإن الاستعمار جاء ليقطف الثمر ويحني المحصول ويعيد توزيع الأنصبة على الشركاء . فدعم الاستشراق مادياً ومعنوياً وأقام له المؤسسات والمراكز وعقد له المؤتمرات وأنفق عليها طائل الأموال . ودعم مراكز التبشير وهباً لها من الوسائل والإمكانات ما جعل شرها يزيد وضررها يستشري وقنائصها وضحاياها يقبلون على الشرك وهم ذاهلون عما يراد بهم . هذا فضلاً عما قام به الاستعمار لصالحه هو من تخريب وتدمير واستنزاف لخيرات البلاد الإسلامية .

ولقد تحكّم الاستعمار في العالم الإسلامي والعالم العربي فكان حكامنا والقيّامون على أمرنا - حيناً طويلاً من الزمان - منهم . فتصرفوا في العالم الإسلامي تصرف المالك في ملكه . تصرفوا في البشر فسحقوا شخصياتهم وشوهوا أفكارهم وحولوا ولاءهم من دينهم إلى الحضارة الغربية . وتصرفوا في الأرض . زرعوها حسب حاجة مصانهم ومعاملهم فالقطن والكروم وغيرها لمصانع الغزل والخمور وغيرها .

وتحكموا في كل المقدرات الاقتصادية للعالم الإسلامي ، حتى فلول الجيوش المنهزمة أمامهم منعوها في كثير من البلاد المسلمة من أن تتطور أو تزيد . وجعلوا سلاحها كله وقفاً على مصانعهم . وحالوا بيننا وبين النهضة الصناعية ودعونا ببلاداً زراعية فحسب ، وزعموا أننا لا نفلح في صناعة وانطلقت الحدة على - الغافلين - امتلأت كتب المدارس والجامعات بهذه الافتراءات . ونقرأ حتى يومنا هذا أن معظم بلدان العالم الإسلامي زراعية وأن سكانها يعيشون على الزراعة والرعي !!!

هؤلاء المستعمرون أداروا دفة السياسة في بلادنا فاستوردوا لها من بلادهم النظم والقوانين في الاجتماع والاقتصاد والسياسة ليديروا بها بلاداً وبشراً يوقنون

بأن هذه النظم تتصادم مع عقيدتهم وتتضارب مع دينهم ومعاملاتهم . ولا تحقق لهم -- بناء على ذلك -- شيئاً من نفع . فضلاً عما تلحق بهم من أضرار .

ومن عجب أن وجدوا فينا معشر المسلمين من يروج لهم ولبلادهم . ومن يزري بدينه ومنهجه في الحياة من أجل عرض من أغراضهم .

وقد ملك المستعمرون في بلادنا كل مراقبها وكل خيراتها وهمينوا على التعليم والثقافة وشرطوا التعليم إلى شطرين ديني ودنيوي ودعوا الثاني وحاربوا الأول وقصروا الوظائف والمنح والبعثات على المتخرجين في التعليم الذي وضعوا هم مناهجه وخططه فارتضى الناس على أعتابهم وتعلقوا بأذيالهم وحاربوا كل ثقافة إلا ثقافتهم وكل تعليم إلا تعليمهم ، ولا تزال حتى يومنا هذا نعانى من نتائج هذه السياسة ، سياسة محاربة المسلمين في مستقبلهم وأرزاقهم أو أن يذوبوا في حضارة الغرب ونظمه وعاداته وتقاليده .

وفي كل مجالات الحياة الإنسانية في عالمنا الإسلامي الكبير كان لهم نشاط وكيد وتدبير ، بحيث فرضوا علينا من النظم والعادات والتقاليد ما يغرنا حقاً وما يبعد بنا عن ديننا ونظمه وآدابه .

وسوف نتحدث في الصفحات التالية من البحث عن بعض هذه المجالات - وعلى الله قصد السيل .

في مجال التعليم والثقافة

وهذا المجال هو أخطر مجالات الحياة الاجتماعية ، والسيطرة عليه سيطرة على مستقبل الأمة وتحكم دقيق في خطواتها على الطريق في كافة ألوان النشاط البشري وما دخل الاستعمار بلداً إلا وكانت ضررته الأولى نحو سياسة التعليم ونظمه في هذا البلد ، وتاريخهم وتاريخ خططهم في تشويه التعليم في معظم بلدان العالم الإسلامي في أفريقيا وآسيا ليس بخاف على أحد ممن يقرأون ويفهمون .

وعندما استولى المستعمرون على بلاد العالم الإسلامي في هذين القرنين الأخيرين كانت معظم بلدان العالم الإسلامي تخرج في تعليمها لأبنائها في المدارس والكتاتيب والمساجد والمعاهد وكافة دور التعليم ، بين المعلومات والحقائق الدينية الإسلامية وبين المعلومات والحقائق التي تتطلبها حاجات الناس في مجتمعاتهم المتغيرة ، فكانت سياسة هذه المدارس تقوم على تكوين المسلم الفاهم لدينه القادر على العمل والكسب الشريفين ، وما تخرج من هذه المدارس والمعاهد والمساجد رجل واحد يعجز - بسبب القصور في مناهج تعليمه - عن ممارسة عمل شريف في حياته فكلما كان يتلقى طالب العلم أصول دينه وفروعه في المساجد والمعاهد والمدارس ، كان يتلقى أصول الحرفة التي يريد وكان المعلمون لهذه الحرف في دكاكينهم وحوانيتهم يقومون بتعليم الراغب في التعليم خير قيام ، وكان المتعلم يذهب إليهم صغير السن نسبياً حتى كان يسمى «صبياً» ولا تزال هذه التسمية تطلق في بعض البلاد العربية على الشاب المبتدئ في تعلم أي حرفة ...

هكذا كان حال التعليم يوم استولى المستعمرون على بلاد العالم الإسلامي .

تعليم يستهدف التبصير بالدين والدنيا معا . فلما كان الأمر بأيدي هؤلاء الأعداء وجهوا كل اهتمامهم إلى هذا التعليم فأفسدوه ، وفرضوا من خططهم ومناهجهم وموادهم التعليمية ما يؤكد في نفوس المتعلمين احترام فكر الغرب وحضارة الغربيين وثقافتهم من جانب ، وما يزرى بالفكر الإسلامى والحضارة الإسلامية والثقافة الإسلامية من جانب آخر ، ورموا بهذا الشر كل المدارس والمعاهد وأماكن التعليم في العالم الإسلامى كله ، وما استحصى عليهم وعلى خططهم إلا قليل من المعاهد والمدارس التى كانت تعنى بدراسة علوم الإسلام كالأزهر في مصر ، وكبعض المساجد التعليمية في قليل من بلدان العالم الإسلامى ، إذ استطاعت هذه الأماكن - إلى حد كبير - أن تحافظ على اهتمامها بدراسة العلوم الإسلامية وعلوم اللغة العربية فكانت بذلك رمزا لتمسك الأمة بدينها ولغتها وتراثها - ومع قلة هذه المعاهد والمساجد وقلة عدد المتعلمين فيها ، إذا قورنوا بعدد المتعلمين في أماكن التعليم الأخرى ، فإنها كانت شجى في حلق المستعمرين ، وكانت سببا في أن يوجه لها المستعمرون أعنى ضرياتهم بأخبث أساليبهم ، فأخذ الأعداء يقللون من شأنها ويضيقون في الإنفاق عليها - وهم الذين يملكون وينفقون - ويزرون بالمتخرجين فيها ويحاولون عزلها عن الحياة العامة ، وتشويهها وتشويه ما تقوم على تدريسه وتعليمه في أذهان الناس عن طريق الصحف المأجورة والأقلام المشتراة وأدعياء العلم الميطرين .

ولنضرب على ذلك مثلا واحدا في بلد عربى مسلم ، ذلك هو الأزهر الشريف بقيامه على أمر علوم الإسلام « في مصر البلد الإسلامى ، كما ينص على ذلك دستوره ، وكما هو واقع المواطنين فيه .

فقد لقي الأزهر من حرب المستعمرين وأذنانهم وأبواقهم والساخرين منه - تقريبا إلى العدو الكافر - بنكاتهم ورسوماتهم ومقالاتهم وبحوثهم وكتبهم ودراساتهم - حربا لا هوادة فيها ، فضيق المستعمرون وأتباعهم من الحكام عليه وعلى المتخرجين فيه تضيقا لا يزال بعضه باقيا حتى الآن ، وسخر الأتباع منه من العلوم التى يقوم على تدريسيها ومن اللغة العربية « المتفجرة كما قالوا ،

التي يدرس بها ، ومن عقليات علمائه وما هم عليه من غفلة وسذاجة كما يدعى الأذنب والأتباع ، ومن الزى الذي يلبسون والكلمات التي ينطقون وكان وما يزال القصد من هذه الحملة هو أن ينزل الأزهر برجاله وعلومه عن الحياة ، وعن التأثير والإيجابية في المجتمع ، ينزل الأزهر بهذا الأسلوب الخبيث عن المجتمع انزالاً يوهم الناس بأن العيب كامن في الدين الذي يدعو إليه الواعظ وفي العلوم التي يدرسها المتخرج في الأزهر ، وليس في المجتمع الذي أفسده المستعمر والثقافات الشائنة المعادية التي صياها في أذهان الناس .

ولست محاولة انتراخ تدريس اللغة العربية والدين الإسلامي في المدارس العامة من المتخرجين في الأزهر ببعيدة عن الأذهان ، ولن يستطيع الآتي من الزمان مها تطاول مداه أن ينسى الناس ما سطره بعض هؤلاء الدعاة المخالفون لحضارة الغرب المواليون لها في حرب الأزهر ومحاولة سلب رجاله العمل الذي يقومون به .

ففي كتاب «مستقبل الثقافة في مصر» لطف حسين جاء حول هذه القضية قوله : «فالذين يزعمون أننا نتعلم العربية ونعلمها لأنها لغة الدين فحسب ، ثم يرتبون على ذلك ما يرتبون من النتائج العلمية والعملية ، إنما يخدعون الناس ، وليس ينبغي أن تقوم حياة الأمم على الخداع ، فإن اللغة العربية ليست ملكاً لرجال الدين^(١) يؤمنون وحدهم بها ويقومون وحدهم من دونها ويتصرفون فيها ، لكنها ملك للذين يتكلمونها جميعاً من الأمم والأجيال ، وكل فرد من هؤلاء الناس حر في أن يتصرف في هذه اللغة تصرف المالك متى استوفى الشروط التي تبيح له هذا التصرف ، وإذن فمن السخف أن يظن أن تعليم اللغة العربية وقف على الأزهر الشريف والأزهريين وعلى المدارس والمعاهد التي تتصل بينها وبين الأزهر والأزهريين أسباب طوال أو قصار ، هذا سخف لأن

(١) كلمة رجال الدين تعبير غربي مستورد غير وارد في مفهوماتنا معشر المسلمين على مدى أجيال عديدة .

الأزهر لا يستطيع أن يفرض نفسه على الذين يتكلمون اللغة العربية .
جميعا . وفيهم المسلم وغير المسلم »^(١) .

هذه صورة من صور حرب الأزهر وسلب المتخرجين فيه أعمالهم أو أخص
أعمالهم . وكما نادى طه حسين بأن يقوم بتدريس اللغة العربية غير الأزهريين .
نادى كذلك بأن ينشأ معهد للدراسات الإسلامية يلحق بكلية الآداب مهمته
أن يعنى بالدراسات الإسلامية على نحو علمى صحيح - كما يقول .

وقد كتب طه حسين يبرر انشاء هذا المعهد فقال :

«..كلية الآداب متصلة بالحياة العلمية الأوروبية وهى تعرف جهود
المستشرقين فى الدراسات الإسلامية ومن الحق عليها أن تأخذ بنصيبها فى هذه
الدراسات لتلائم بين جهود مصر التى ترى لنفسها زعامة البلاد الإسلامية وبين
جهود الأمم الأوروبية .. »^(٢) .

ولعل النص التالى يوضح لنا حقيقة مشاعر الموالين لثقافة الغربيين نحو
الأزهر والعلوم الإسلامية التى تدرس فيه . ففي مؤتمر برنستون «لثقافة
الإسلامية» الذى عقد فى صيف عام ١٩٥٣ م بدعوة من جامعة برنستون
الأمريكية ، قدم الدكتور محمد خلف الله بحثا بعنوان : «القيم الإسلامية
والحياة الأدبية فى مصر الحديثة» جاء فيه قوله فيما نحن بصددده : «فقد بدأ
المقرن التاسع عشر والثقافة مركزة فى الأزهر فى فروع الدراسة الإسلامية التى
كانت تدرس على مناهج القرون الوسطى . والأدب مقصور على الآفاق
الضيقة .. ثم اتجه النشاط حيناً فى أواسط هذا القرن إلى حركة الطباعة ونشر
الكتب المترجمة عن الغرب فى مختلف العلوم . وبدأت ثروة اللغة العربية تزداد

(١) طه حسين : مستقبل الثقافة فى مصر ٢٣ ط المعارف ١٩٤٤م ..

(٢) السابق : الفقرة ٤٩ .

بهذه التراجع . وبدأت عقول المصريين تنقسم أرواحا جديدة من أدب الغرب وثقافته .. (١)

ولا نحب أن نستطرد في محاربة الأزهر بأكثر من هذا لأن لهذه الحرب أسبابا وبواعث ما نرى بحثنا هذا يتحمل الحديث فيها وبسط القول على النحو الذى يقتضيه التعريف ببواعث هذه الحرب وأسبابها ونتائجها في مصر وفي غيرها من البلاد العربية والإسلامية .

ولقد عمل المستعمر على أن يشن على اللغة العربية الفصحى . لغة القرآن الكريم . حربا ضارية عن طريق الدعوة إلى استخدام العامية واللهجات الإقليمية المحلية حيناً . وإلى استخدام الأحرف اللاتينية بدل الأحرف العربية حيناً آخر .

وإن أعجب العجب أن تصعد حملة الدعوة إلى العامية وإلى إحياء اللهجات الإقليمية ودراساتها والعكوف عليها حتى تصل إلى أن ينادى بها ويؤيدها بعض أعضاء مجمع اللغة العربية - الذى من أبرز وظائفه المحافظة على الفصحى وتقريبها إلى الناس .

ففي المؤتمر الأول للمجامع اللغوية العلمية الذى عقد في دمشق عام ١٩٥٦م الذى حضره وفد يمثل مجمع اللغة العربية في القاهرة ووفد من المجمع العلمى العراقى ووفد من المجمع العلمى العربى في دمشق ووفد يمثل الأمانة العامة للجامعة العربية . ومندوب يمثل اليونسكو . ومراقبون من الأردن والسعودية وليبيا ولبنان . وكان هدف هذا المؤتمر بحث شئون اللغة العربية . ولكن هذا المؤتمر دعا أعضاءه إلى العامية وإلى تبديل الخط العربى وتغيير قواعد النحو والصرف والبلاغة .

(١) محمد خلف الله : الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة : ٥٤٠ ط مؤسسة فرانكن القاهرة ١٩٦٢

ولنضرب على ذلك بعض الأمثال :

١ - يتحدث أحمد حسن الزيات عضو مجمع اللغة العربية في القاهرة عن قضية الفصحى والعامية في المجمع فيقول : إن المحافظين من شيوخ الأدب قد سيطروا عليه في أول نشأته - يقصد المجمع اللغوى نفسه - ثم انتهى زمانه إلى الكتاب والصحفيين الذين نهبوا المجمع إلى أهمية العامية وإلى خطورة جمود اللغة بتخلفها عن مسايرة الزمن...!! هكذا يتحدث عن الفصحى أحد حمائها ولم يكف الزيات بذلك . بل قال : إنه يسهل علينا تطوير الفصحى حتى تقترب من العامية . وإن علينا أن نشرع في دراسات عاميات الأقطار العربية المختلفة لإقرار ما هو مشترك منها سواء صح في معاجم اللغة أو لم يصح ..!!

٢ - يتحدث على حسن عودة مندوب الأردن في هذا المؤتمر فيقول : إن على الجامعة العربية أن تعنى بوضع معجم يسمى معجم العامة أو غير ذلك من الأسماء ، يكتفى فيه بالمفردات التي يحتاج إليها في كافة مرافق الحياة ، وتحشد فيه أوضاع جديدة للدلالة على مستحدثات العصر الفنية المتداولة ..!!

٣ - يتحدث إبراهيم مصطفى عن تيسير قواعد اللغة العربية ، بما هو مخرب للغة العربية وقاوس عليها في حاضرها ومستقبلها .

٤ - يتحدث طه حسين في مقال له بعنوان : تيسير القواعد في اللغة - فينادى بقریب مما نادى به إبراهيم مصطفى في تغيير قواعد الكتابة العربية .

٥ - يتحدث منير العجلاني وأنيس فرجة وأحمد عبد السلام أحاديث متقاربة في الدعوة إلى تغريب اللغة العربية وقتلها^(١) .

(١) محاضرات جلسات هذا المؤتمر الذي نشرته الجامعة العربية - متفرقات . نقلا عن : حصوننا مهددة من داخلها للدكتور محمد محمد حسين .

والعجيب أن هذه الدعوات ليست إلا صدى لما رددته أعداء الأمة الإسلامية من أمثال كرومر ودانلوب وويلككس وويلمون ، وأذناهم من أمثال إسكندر معلوف ورثيف أبي اللمع وفارس عمر وغيرهم ، وحشد من أساتذة هؤلاء من المستشرقين أمثال : ولیم سیتا ، وفولارز ، ويوريان ، وماسبيرو وباول ، وفيلوت وغيرهم .

فهى حملة ضارية لتفريب اللسان العربى بقتل فصحاء أولا ثم إحلال لغات أجنبية أو لهجات عامية محل الفصحى ، ذلك أن أعداءنا يدركون تماما أن اللغة هى فكر الأمة ووجدانها ، وأن لسانها ما هو إلا تعبير عن هذه الأفكار والعواطف ، فالحرب الحقيقية لأمة تبدأ بحرب لغتها للقضاء على تاريخها وحضارتها ومسح حاضرها ، ومستقبلها ، وقد نجح عدونا فى أن يفزوا فكر الأمة الإسلامية بلغاته التى أشاعها بل فرضها على أبناء البلدان الإسلامية التى احتلها لغة تعليم ، ولغة وظائف بل لغة يستكثر بها من المال والجاه والسلطان - كما صرح بذلك أكثر من واحد من هؤلاء المستعمرين .

كما نجح عدونا فى أن يفقد كثيرين من أبناء الأمة الإسلامية ثقتهم بلغة القرآن الكريم ، فسيماها أحيانا باللغة الدينية ، وأحيانا اللغة الجامدة القظة الغليظة ، وأحيانا وصفها بالعجز والتخلف وأحيانا ادعى أنها أصعب اللغات فهما وتعلما ونحوا وتصريفا .

وما يجهل عدونا قيمة اللغة فى بعث كيان الأمة والنفع فى روحها ، بل حملها على التحرر والاستقلال ، ما يجهل عدونا ذلك ولا نجعله نحن فلنا وله على ذلك من التاريخ الحديث شواهد وبراهين :

فالأمة التشيكية انبعت حرة مستقلة عن طريق عنائها بلغتها على الرغم من محاولة الألمان والنسايين القضاء على اللغة التشيكية واعتبارها لغة أفظاظ - دعما لاحتلالهم للأراضى التشيكية - وإخلاصا لرغبتهم الشديدة فى حرب ماضى التشيكيين لإعادة حاضرمهم ومستقبلهم ، ولكن التشيكيين بتمسكهم

بلغتهم وعنائتهم بها وحرصهم عليها فوثوا على عدوهم غرضه ونالوا حريتهم واستقلالهم .

والنرويجيون حينما تمسكوا بلغتهم في مواجهة الاحتلال الدانمركي والسويدي لنبلادهم ورفضوا رفضا قاطعا لغة هؤلاء الأعداء - على الرغم من التقارب الشديد بين تلك اللغات - عندئذ عاشوا أحراراً مستقلين لا ينطقون لغة العدو التي تذكرهم بالذل والهوان .

وفي فرنسا قامت ضجة اجتمعت لها بعض المجالس النيابية واشتركت فيها الصحافة ، حتى إن صحيفة «لموند» أقامت الدنيا وأقعدتها آنذاك ، لأن كلمات أوروبية غير فرنسية قد تسربت إلى اللغة الفرنسية . فخاف الفرنسيون من ذلك على لغتهم أولاً وعلى أمتهم الفرنسية ثانياً

وفي ألمانيا - في عهد النازيين - أصر الألمان على أن يضعوا كلمات ألمانية موضع بعض الكلمات اللاتينية اليونانية التي كانت مستعملة . وقد أكد «فيختة» كاتب ألمانيا المعروف : أن اللغة الألمانية قادرة على رفع معنويات الأمة وإعادة وحدتها وتوطيد أركانها بعد أن كانت جيوش نابليون قد جعلت من ألمانيا ما يقرب من ثلاثين دولة .

تلك شواهد من التاريخ الحديث على أهمية اللغة . أي لغة . في الأمة التي يتكلم بها . فما بالنا إذا كانت لغتنا العربية هي لغة القرآن الكريم أكمل دين وأشمل نظام ؟

العجيب حقاً أن يفضى عدونا في حرب لغتنا وإفساد لساننا ثم يجد أبناء اللغة العربية من يستجيبون له ويرددون باطله ، فيكونون حرباً على لغتهم وأممتهم ودينهم .

وما تلك العامية التي يروجون لها ؟ أي عامية يعنون ؟ عاميات مصر العديدة أم عاميات الجزيرة العربية المتعددة ؟ أم عاميات المغرب العربي المختلفة ؟ أم عاميات الجزيرة القراتية ؟ لست أدري ولا أظنهم يدرون كذلك .

ولقد أتيج لى شخصيا أن أزور معظم بلدان العالم العربى وأن أستمع إلى
عاميات صعيد مصر ودلتاها ونوبتها . وعاميات الكويت على ضيق مساحتها .
وعاميات الأردن . والعراق جنوبه وشماله . وعاميات المغرب العربى تونس
والجزائر والمغرب . وإلى اللهجات العديدة فى المملكة العربية السعودية غربها
وشرقها وجنوبها وشمالها ووسطها - والمملكة العربية السعودية مهد الفصحى
وأماها الرءوم - - وأشهد - فى حدود علمى - أن هذه العاميات وتلك اللهجات
التي لا تكاد تخصى فى هذه المنطقة العربية تستعصى على فهم كثيرين من
العرب أنفسهم .

أى هذه اللهجات العامية يشجع دعاة العاميات ؟ ومهما دافع أنصار
العاميات فسموها أحيانا لغة الشعب أو تراث الشعب أو المأثورات الشعبية .
ومهما نادوا بأن تعنى بها الجامعات وأن تنشئ لها الأقسام العلمية والكراسى
والأساتذة . فإن هذه الدعوة لن تبلغ من نفوس العقلاء مبلغ الرضى بحال .

وليس تشجيع تعلم اللغات الأجنبية واشترائها فى بعض الوظائف فى العالم
العربى بالذات إلا نوعا من التبعية . ولونا من الاعتراف بأن لغة العدو
والمتستعمر لها فى بلادنا من المكانة ما لا تستحقه . وما هذا التشجيع للغات
الأجنبية فى حقيقته إلا تبعية فكرية ثقافية . وتغريبا ضروريا لعدد من أبنائنا .
وهو فى الوقت نفسه حرب للغتنا وإحلال للغة أخرى محلها . وإهمال للغة
القرآن الكريم . غير أن كلامنا هذا لا يعنى أن نرفض تعليم اللغات الأجنبية
فى عالمنا الإسلامى . وإنما يعنى أن تكون للعربية المكانة الأولى فى العالمين العربى بالذات
والإسلامى بعامة .

وما أحوجنى فى هذا الموقف مع دعاة العامية ومشجعى اللغات الأجنبية أن
ذكرهم بكلمة عبر فيها كاتبها عن موقف الأسبان فى إقبالهم على اللغة العربية
أيام « عبد الرحمن الداخل » حينما أعجبوا بها وكتبوا أروع ما كتبوا وهجروا
اللاتينية . الأمر الذى أثار حفيظة متعصب كنسى هاله إقبال قومه على اللغة

العربية فأخذ يتباكى على ذلك - أريد أن أذكر الآن بهذه الكلمة لأنها
تعكس بدقة موقفنا نحن من اللغات الأجنبية لغات أعدائنا وأعداء ديننا .

تحدث الكاتب الإسباني المشهور «الفارو Alvaro» في القرن
التاسع الميلادي الثالث الهجري تقريبا يصف إقبال قومه على العربية . ويصور
أسف أحد كبار الإسبان المتحصين لهذا الإقبال فقال : «ان أرباب الفطنة
والتذوق سحرهم رنين الأدب العربي فاحتقروا اللاتينية وجعلوا يكتبون بلغة
قاهريهم دون غيرها . ولقد ساء ذلك بعض كبار الإسبان فقال : إن إخواني
المسيحيين يعجبون بشعر العرب وأقاصيصهم ويدرسون التصانيف التي كتبها
الفلاسفة والفقهاء المسلمون . ولا يفعلون ذلك لدحضها والرد عليها . بل
لاقتباس الأسلوب العربي الفصيح . فإن اليوم من رجال الدين من يقرأ
التفسير الدينية للتوراة والإنجيل ؟ وأين اليوم من يقرأ الاناجيل وصحف الرسل
والأنبياء ؟ واأسفاه !! إن الجيل الناشئ من المسيحيين الأذكياء لا يبحثون
أدبا أو لغة غير الأدب العربي . ويجمعون منه المكتبات الكبيرة بأغلى الأثمان .
ويترنمون في كل مكان بالثناء على الذخائر العربية . بينما هم حينما يسمعون
بالكذب المسيحية بأنفون من الاصغاء اليها . محتجين بأنها شيء لا يستحق منهم .
مؤونة الالتفات . فيا للأسى . ان المسيحيين قد نسوا لغتهم . فلا نكاد نجد
فيهم اليوم واحدا في كل ألف يكتب بها خطابا إلى صديق . أما لغة العرب
فما أكثر الذين يحسنون التعبير بها على أحسن أسلوب » (١) .

أنا أهدي هذه الكلمات للعرب الذين يحاربون اللغة العربية . وأذكر بها
تلاميذ طه حسين ومحبيه وأذكرهم بما قاله عميد الأدب العربي في مجال قريب
من مجال حديث ذلك الأسباني المسيحي الغيور على لغته . أذكرهم بكلمة طه
حسين في كتابه الذائع الصيت : مستقبل الثقافة في مصر . ليروا بأعينهم ما
يشمئ طه حسين للغة العربية :

(١) مولود قاسم : إنية وأصالة - منشورات وزارة التعليم وأنشئون الدينية بالجزائر ١٣٩٥هـ .
١٩٧٥م .

يقول محاولا عزل اللغة العربية عن الحياة . ويربطها بأن تكون لغة دين وطقوس وعبادات فحسب . لا لغة أدب وفكر وحياة : « وفي الأرض أمم متدينة كما يقولون . وليست أقل منا إثارة لدينها ولا احتفاظا به ولا حرصا عليه ولكنها تقبل في غير مشقة ولا جهد أن تكون لها لغتها الطبيعية المألوفة التي تفكر بها وتصطنعها لتأدية أغراضها . ولها في الوقت نفسه لغتها الدينية الخاصة التي تقرأ بها كتبها المقدسة وتؤدي فيها صلواتها . فاللاتينية مثلا هي اللغة الدينية لفريق من النصارى واليونانية هي اللغة الدينية لفريق آخر . والقبطية هي اللغة الدينية لفريق ثالث . والسريانية هي اللغة الدينية لفريق رابع ... وبين المسلمين أنفسهم أمم لا تتكلم العربية ولا تفهمها . ولا تتخذها أداة لفهمهم والتفاهم ولغتها الدينية هي العربية . ومن المحقق أنها ليست أقل منا إيمانا بالاسلام وإكبارا له وزيادا عنه وحرصا عليه ^(١) .

أظن هذا الكلام من عميد الأدب العربي غنى عن التعليق

ولنتحدث الآن عن ثمرات هذا الإفساد للتعليم خططه ومناهجه وأهدافه . لنرى كيف استطاع عدونا أن يغرونا في عقر دارنا . وأن يفسد علينا أفكارنا . وأن يحولنا إلى أتباع له في فكره وحضارته .

فن أبرز ثمرات هذا الإفساد للتعليم أن حدث الاختلاط بين البنين والبنات في معظم بلدان العالم الإسلامي في المرحلة الابتدائية وفي بعضها في المرحلتين المتوسطة والثانوية . وفي أغلبها في المرحلة الجامعية . وترتب على الاختلاط ما ترتب من عيوب ومآخذ وابتعاد عن منهج الإسلام في تنشئة البنين والبنات في ظروف تحفظ لهم حياءهم وكرامتهم الإنسانية وتصور أنوثه الأنثى ورجولة الرجل من الابتذال والامتهان .

ومن ثمراته أن تحول ولاء معظم المتعلمين والمتعلمات إلى الثقافة الغربية والحضارة الغربية فارتضى في أحضانها يعبر من فسقها وأخلالها وانحرافاتها

(١) طه حسين : مستقبل الثقافة في مصر : ٢٢٩ - ٢٣٠ ط المعارف ١٩٤٤م

بالفطرة الإنسانية عما فطرها الله عليه . متجاهلا ثقافته الإسلامية وحضارته
الراشدة الهادية وآداب كتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

ومن ثمراته تلك المؤتمرات التي عقدت ولا تزال تعقد في العالم الإسلامي
للنشاط الثقافي وتبادل التجارب التعليمية والميدانية والمعلمين التي تبناها منظمة
«اليونسكو» وذلك الترويج للفلسفات والآراء الاجتماعية والسياسية التي يتبناها
الغرب ويدعو إليها . هذا وذاك من ثمرات جهود الأعداء في السيطرة على
التعليم في العالم الإسلامي . فهذه المؤتمرات والندوات تستهدف السيطرة الكاملة
على العقلية الإسلامية والمجتمعات الإسلامية كلها .

ومن أمثلة هذه المؤتمرات المشبوهة في نواياها :

- ١ - مؤتمر تبادل المدرسين بين البلاد العربية الذي انعقد في القاهرة سنة
١٩٥٦م بدعوة من منظمة «اليونسكو» .
- ٢ - مؤتمر التعليم الثانوى الذى عقد فى مصر سنة ١٩٥٥م وشاركت فى
الدعوة إليه الجامعة الأمريكية فى القاهرة .
- ٣ - مؤتمر الحلقة التربوية التى دعت إلى عقده الجامعة الأمريكية فى بيروت
سنة ١٩٥٤م وكان موضوعه «فلسفة تربوية متحدة فى عالم عربى متحد» .
- ٤ - حلقة دراسات التربية للتفاهم العالمى التى انعقدت فى مقر منظمة
«اليونسكو» فى بيروت سنة ١٩٥٥م .

وغير ذلك من المؤتمرات والندوات والحلقات التى عقدت فى مختلف بلدان
العالم الإسلامى . والتي تستهدف السيطرة على التعليم . نظمه ومناهجه
وأهدافه فى العالم الإسلامى . أو تغريبه ليخرج لهم متعلمين يوالون ثقافتهم
وحضارتهم وبعادون الحضارة الإسلامية .

وما يشك بصير بالسياسة أن «اليونسكو» خاضعة لنفوذ أمريكي ملحوظ .

وأن أمريكا خاضعة لنفوذ صهيوني ملحوظ . وأن الصهيونية من ألد أعداء الإسلام والمسلمين .

ومن ثمرات السيطرة على التعليم أن نبتت فكرة خبيثة تنادى بأن الدين من الأعمال الشخصية الفردية الخاصة بالإنسان . والتي تترك له فيها الحرية الكاملة دون التقيد في ذلك بآداب اجتماعية معينة . ودون أن يكون لهذا الدين أدنى صلة بالنظم السياسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية السائدة في الحياة . ودون نظر إلى معايير أخلاقية معينة . ودون أن يكون لهذا الدين صلة مؤثرة في الحضارة أو الثقافة أو الفنون . وهذه الفكرة تستهدف عزل الإسلام عن حياة المسلمين ومسح الشخصية الإسلامية بتحويل انتمائها إلى الحضارة الغربية .

ومن ثمرات سيطرة أعدائنا على التعليم دعوات الإلحاد والزيف والفساد . وتحت الرجال وترجل النساء . وكل آفة من دعوات سفور المرأة ومخالطتها الرجال وتحريرها من سجن البيت - كما يزعمون - وتحويلها إلى ممثلة وراقصة ومغنية ومسامرة على موائد الخمر والميسر .

ومن ثمرات السيطرة على التعليم والمتعلمين أن مهدت الطريق أمام الأعداء - للفقضاء على الموانع والعقبات - لكي ينشئوا مراكز وهيئات ومؤسسات معادية للإسلام محاربة لفكره وحضارته وأخلاقه وآدابه مثل :

مراكز التربية الأساسية في العالم العربي . فهي تستهدف القضاء على القيم الإسلامية بدعوى التطوير والتنمية وهذه المراكز من أهم ركائز الغزو الفكري في العالم العربي والعالم الإسلامي . فهي تحول العادات والتقاليد الموروثة إلى عادات وتقائيد غربية لا تعرف الحياء ولا تستحي من الأحاديث الجنسية المكشوفة بين الناس .

هذه ثمرات السيطرة على التعليم وتخريب خططه ومناهجه وأهدافه . والمهدف الكبير من وراء كل ذلك أن يذوب الكيان الإسلامي من نفوس المسلمين . ليصبحوا نهياً للفكر الغربي والحضارة الغربية .

في مجال الحياة الاجتماعية

الحياة الاجتماعية وما يسودها من قيم خلقية وآداب سلوكية ، وما يحيط بها من عادات وأعراف وتقاليد هدف ضخم لأعداء الإسلام والمسلمين ، بالسيطرة عليها أو تغريبها يستطيع الأعداء أن يسودوا المجتمعات الإسلامية وأن يغرسوا في نفوس الناس ما شاعوا من قيم وآداب وعادات وأعراف ، وإذا أفلحوا في ذلك استطاعوا بأيسر مجهود أن يقتلوا من نفوس الناس القيم الإسلامية والآداب القرآنية وكل فضيلة دعا إليها الإسلام .

وفي هذا المجال كان لمحاولة تغريب المرأة أولوية وأهمية ، لأن إفساد المرأة يسرع بالاجتماع كله نحو الفساد ، فمن المعروف أن المرأة ذات أثر لا ينكر في تربية الأبناء وتنشئهم منذ نعومة أظفارهم ومن هنا يكون تشويهها أو تعذيبها تشويهاً لأفراد الأسرة وبراءتها رجال المستقبل ونسائه .

فكانت الضربة الأولى للمرأة ، فنادوا بأن تخلع حجابها ففعلت وشجعها على ذلك الغافلون من أبناء دينها ، ثم نادوا بأن تتجرد من ملابسها شيئاً وراء شيء ووجدت المرأة من أبنائها من يشجعها على ذلك ويزينه لها ، غافلاً عما يقول أو ضالماً مع الأعداء .

ولم يمض على ذلك زمن طويل حتى أصبح اختلاط البنات والبنين شيئاً مسلماً به في معاهد التعليم أكثرها وفي الحياة الاجتماعية أغلبها ، ثم زجوا بالمرأة في ميادين العمل ومصارعة الحياة ومزاحمة الرجال ، تقوم بما لم ينهه لها طبيعتها ومالا تستطيعه في كثير من الأحيان ، فعملت صاغرة ذليلة مخلاة في المزارع والمصانع ، وخدمت الرجال في الفنادق ، وغنت لهم ورقصت ، وقامت بالأدوار التمثيلية لتمتعهم بصوتها وجسمها وما حرم الله عليها فعله ، حتى غدت سلعة رخيصة تباع وتشترى .

ولم تقف حملات تعريتهم للمرأة وسلخها من إسلامها عند هذا الحد -
على ما فيه من قسوة وضراوة - وإنما تجاوزوا ذلك إلى العبث بحقوقها وواجباتها
التي فرضتها الشريعة الإسلامية والتي هي أكرم أسلوب لحفظ كرامة المرأة
وصيانة حاضرها ومستقبلها ، فعبثوا بنظام الطلاق في الإسلام ، وعبثوا بنظام
الحضانة ونظام الزواج ونظام الميراث .

وأعجب العجب أن نفذت ذلك بعض بلدان العالم الإسلامي ، سعيدة
بأن المرأة بهذا سوف تكون مثل المرأة الأوروبية تماما

ألا ليتهم يستمعون أو يعقلون ما تتحدث به المرأة الأوروبية اليوم عن الترتل
التي هي فيها !!

ألا ليتهم يعلمون إلى كم تضيق المرأة الأوروبية بما هي فيه وما هي عليه
من حال !!

هذا في مجال المرأة .

وفي مجال الأسرة أخذت حملات التغريب صورة خبيثة مأكرة ، فبعد أن
بعدت المرأة عن بيتها ومملكتها معظم وقتها وأغلب يومها ، كانت النتيجة
الطبيعية لذلك أن يعيش أفراد الأسرة - وبخاصة الصغار - منهم في إهمال
وتهاون ، وترتب على عمل المرأة أن تترك أبناءها أغلب اليوم ليربيهم الخدم
والأغراب ، ولا يمكن تجاهل الآثار النفسية والتربوية السيئة التي يعاني منها
الطفل في مستقبل أيامه حين تحرمه وسائل التغريب من حنان أمه وحديثها
وحرصها على توجيهه وتربيته أحسن تربية بوحى من فطرة الأمومة النقية
الصافية .. وحتى لو أشرفت المرأة على تربية أبنائها بعد أن شوهتها حضارة
الغرب وأفسدت فيها فإن هؤلاء الناشئين لن يكونوا على الصورة التي تمكنهم
من الإسهام في بناء المجتمع الذي يعيشون فيه ..

ومن هنا نستطيع أن نجد السبب وراء الجنوح والانحراف واحتراف الحرف

الحفلة بالآداب والمنافة للشرف والأمانة هنا - في مجال العبث بالأسرة - نجد
الحوار !!

وفي مجال حرب المجتمع المسلم كله والحيلولة بينه وبين الفو والترايد ،
وجهت ضربة قاسية له في الدعوة إلى تحديد النسل أو تنظيمه ، فهذه الدعوة
الحديثة فضلا عما فيها من إنقاص عدد المسلمين وإضعافهم ، فإن لها من الآثار
الجانبية ما هو خطر وشر مبین .

فهذه الوسائل التي يمنع بها الحمل منها ما هو ضار بصحة الأم - كما
أوضح ذلك بعض أهل الخبرة من الأطباء - وهي في عمومها ضارة بالأخلاق
لأنها تتيح لكثيرات من أهل الفجور - والعياذ بالله - جريمة الزنا ثم يخفون
آثارها بهذه الوسائل .

ولنا أن نساء قائلين :

لماذا تقوم الدعوة إلى تحديد النسل على قدم وساق في بلدان العالم
الإسلامي وحده دون دول أوروبا مثلا ؟

ولماذا تشجع البلدان الإسلامية والعربية والنامية - كما يقولون - على تحديد
النسل ، بينما تشجع بعض دول أوروبا على زيادة النسل ؟ كفرنسا على سبيل
المثال .

ولماذا لا نسمع عن تحديد النسل في البلد الذي اغتصبت أرضه من أهله
وهو إسرائيل ؟

أم القصد أن يتنقص عدد المسلمين دون سواهم ؟

وهل هناك صلة حقيقية بين تحديد النسل والمشكلات الاقتصادية التي
يصطنعها عالم الغرب ويغرق فيها معظم العالم الإسلامي والعالم النامي ؟

انني أدرك أن كلامي هذا سوف يكون شجى في حلق كثيرين من الدعاة
إلى هذه المصيبة المسماة تحديد النسل ، وأدرك أنهم إن قرأوا هذا الكلام

فسوف يقرأونه ساخرين من كاتب لا يعرف - في نظرهم - كيف تغلب الدول النامية على ما يدعى بالمعادلة الصعبة - وهي زيادة عدد السكان. عن معدل الانتاج في بلد ما - ولكن ليظن من شاء ما شاء فأننا أتصور أن تحديد النسل تأمر على القوى البشرية وإيقاف لها عند حد القلة والضعف وبخاصة في بلدان العالم الإسلامى ، ما أشك في ذلك ولا أتردد والدلائل من حولى شاهدة معبرة .

ثم وجهت إلى المجتمع ضربة قاسية في عاداته وتقاليده وآدابه العامة ، حاول بها الأعداء أن يغربوا مجتمعاتنا وأن يسعوا بها في الطريق الذى يذيب كيان هذه المجتمعات ويحل عراها ويلقى بها ضحية مسلوقة الإرادة في أحضان الحضارة الغربية .

فقد غربوا طريقتنا في الطعام والشراب فأصبح كثيرون منه يأكلون بيسراهم ، ويحشدون على موائد الطعام ما هم في غير حاجة إليه ويتريدون ويبالغون ، ويمجمون إلى الطعام أشربة محرمة ، ويسرفون فيه متجاهلين موقف الإسلام من كل ذلك .

وغربوا طريقتنا في اللباس والزى ، فأخذ الناس يلبسون من الملابس ما يكشف عوراتهم وما يصف أجسامهم ويشف عنها ، واختلط أمر اللباس فأصبح الرجال يقلدون فيه النساء والنساء يقلدن الرجال ، وأصبحت النساء بهذه الملابس كاسيات عاريات مائلات مميلات .

فاخترع لنا الأعداء احتفالات سموها أعيادا بقصد إغراق الأمة في اللهو والباطل والتفاهات - فهذا عيد الأم وذاك عيد الأسرة وذلك عيد العمال ، وعيد كذا وعيد كذا ، بينما لا يعرف المسلمون من الأعياد إلا عيدين عيد الفطر وعيد الأضحى وما وراءهما زيادة لا تستهدف إلا شغل الناس بالتافه من الأمور والقائم في خضم التقليد وتيار الانجراف في التبعية للغرب وحضارته .

وما داهية اختلاط النساء بالرجال إلا واحدة من حلقات هذا المخطط الرهيب المعادى للإسلام ، يحاول بها العدو أن يقضى على رجولة الرجال وأنوثة النساء ، ويصل بها من وراء ذلك إلى إشاعة التخث والميوعة والتفاهة في الرجال ، والترجل والتهتك والعري في النساء ، فتسلخ شخصية المسلم من دينها . وتتدفع على غير وعى ولا هدى إلى تقليد الأوروبيين في هذه الدوامى التى يحرمها الإسلام وتحالف روحه ونصوصه .

ولست السينما وما تعرضه من أفلام مثيرة للغرائز ومشجعة على العنف والسطو والانحراف ، وليست المسارح وما تعرضه من مسرحيات تكشف فيها عورات النساء وتؤكد بها القيم الفاسدة وتتحدى بها سلطة الآباء والأمهات ، وسلطة المربين والقائمين بأمر التعليم ليس ذلك كله إلا صورة من صور المحاولة المستميتة لتفريب الحياة الاجتماعية في المجتمعات المسلمة .

وعلى سبيل المثال : فإننى لا أجدر تعليلا لعرض مسرحية «مدرسة المشاغبين» فى أكثر من بلد مسلم إلا دعوة إلى التمرد على سلطة القائمين على التعليم ، ودعوة ماثلة الى السخرية بهم والزراية بعملهم ، وإغراء الطلاب بهم ، وإلا فما هى الفائدة من عرض تلك المسرحية التى تختلط فيها الدعوة إلى الترد بالدعوة إلى الجنس وإغراء الشباب بمشاكسة النساء وتتبع عوراتهن ، ما فائدة هذه المسرحية عند دعاة التقدم والتحضر والتفريب ؟

نحن فى انتظار العبقري الذى سيجيب .

وما أمر هذا الاهتمام الزائد بالرياضة البدنية وأنديةها ؟

وما الهدف الحقيقى من وراء خلق التعصب لبعض الأندية الرياضية على بعض ؟

وهل هناك أدنى مصلحة اجتماعية أو سياسية من وراء جعل الناس فرقا

متضاربة وأحزاباً متعاركة من أجل انتصار فريق رياضى على فريق ؟

وهل القصد من ذلك قصد ترويض رياضى ينمى جسم الشاب وعقله وخلقه ؟

ولسنا بهذا من دعاة محاربة الرياضة البدنية . ولكننا ندعو إلى تطويرها واختيار الأنسب منها لتربية الجسم والعقل والخلق وصناعة الرجال فى إطار ما أحل الله للشباب المسلم من عمل ورياضة لا تورث الحقد ولا تعقب المشاحنات والمشاجرات ، ولا تجعل تكوين العضلات فى الجسم هدف الرياضى قبل تكوين الأخلاق .

أم أن وراء الاهتمام الزائد بالرياضة والأندية الرياضية المختلطة هدفاً كبيراً .
وجزءاً من خطة تحاول إلهاء الشباب المسلم وشغله بالتافه المنحرف من الأعمال ؟

أما الحديث عن الملامى والمراقص وعلب الليل . وما يدور على شواطئ البحار « المصايف » : فذلك محاولة جادة لطبع المجتمع المسلم بطابع المجتمع الغربى الذى لا يقيم وزناً للفضائل ولا يحترم الآداب

هذه بعض مظاهر حملة التفرير فى مجال الحياة الاجتماعية : أتينا منها بالقليل الدال . ولم نقصد الاستيعاب والتوسع خشية أن نفيض فيما لا تتطلبه طبيعة البحث وحجمه .

وفى مجال نظم الحكم والسياسة والاقتصاد كانت خطة دعاة التفرير تقوم على اعتبار هذه الجوانب من الحياة أهم جوانب الحياة إيجابية وتأثيراً .

وقد خطط العدو ونجح فى تخطيطه لتصبح أنظمة الحكم فى أغلب بلدان العالم الإسلامى أنظمة غربية . ولتصبح القوانين والآداب التى تحكم العلاقة بين الناس بعضهم ببعض ، أو بين الناس وحكامهم قوانين غربية مستوردة غربية ومعادية

للإسلام وللمسلمين استهدف منها أصحابها أن تحل محل الشريعة الإسلامية والنظام
الإسلامي .

وما المصارف ونظم تعاملها من حيث الربويات والفوائد والعمولات والمزايدات
وغيرها إلا أنظمة قصد منها تحدى النظم الإسلامية في التعامل بالمال . واستغلال
حاجة الناس دون رحمة أو رعاية . وطبع المجتمع بطابع الغرب المادى الذى لا
يقيم وزنا لحاجة المحتاجين . وإنما يقطع العلاقات الإنسانية التى يجب أن تسود
المجتمع وتشوه إلى حد كبير النظرة التى يجب أن ينظر بها الحاكم الى المحكومين
والمحكومون الى الحاكم . وليس لقيام الثورات الدموية الرهيبة والانقلابات
العسكرية المدمرة من سبب أقوى من هذا القلق الذى تفرسه نظم الحياة الغربية في
نفوس الناس هنا وهناك .

وليس القضاء بين الناس والفصل في خصوماتهم في أغلب بلدان العالم
الإسلامي إلا صورة من القضاء الغربي الذى يتجاهل القيم الإسلامية في الفصل
بين الناس في خصوماتهم ومنازعاتهم .

ولست المجالس النيابية ووسائل ترشيح الناس لها وانتخابهم إلا صورة من صور
الأنظمة الغربية التى تتجاهل خلق الإسلام وآدابه . وكذلك شأن المجالس النيابية
وغيرها من المجالس .

والحق أن فرض النظم والنظريات على الناس وهى غريبة عنهم ولا تلائم
فطرتهم التى فطرهم الله . ولا تتفق مع الإسلام الذى يدينون به . وعمل متبرير
متوحش فيه من القسر والضراوة ما فيه .

وليس الهدف من تغريب نظم الحكم والسياسة إلا أن يعزل الإسلام عن
قيادته الراشدة للحياة والأحياء . وأن تعطل الشريعة الإسلامية التى اختارها الله
نظاما متكاملًا تقوم عليه حياة الأمن والطمأنينة لكل الناس .

وهذا هو التغريب الذى نعى . وهو فى الوقت نفسه من أنجث التيارات
المعادية للإسلام والمسلمين وهو حلقة من سلسلة كما ذكرنا فى صدر الحديث عن
حملات التغريب بعد حملات التشويه .

الباب الثاني
ركائز الغزو والفكرى وأدوائه
وفيه فصول ثلاثة :

الفصل الأول

الركائز

الفصل الثاني

المنطلقات

الفصل الثالث

الأدواء

الباب الثاني

ركائز الغزو الفكري وأدواته

نحاول - في هذا الباب من البحث - أن ندل على ركائز الغزو الفكري وأن نعرف بأدواته ووسائله ، وأن نتحدث عن الظاهر من هذه الركائز والوسائل : والحلقى منها : ورغبة في أن نرى هذه الركائز والأدوات عن أثواب الرياء والتفاق التي ترتديها ، ونحاول بها أن تبدو في صورة البرئ ، فلعل هذا التعريف يكشف للجماهير المسلمين عن أعدائهم ، وينير أمامهم الطريق ، طريق العمل الجاد للإسلام ، العمل الذي نأمل أن يعيد إلى الأمة الإسلامية وضعها الصحيح بين الأمم . «كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله»

ولا أدعى أني في هذا البحث سوف أستقصي أو أحصر حصراً دقيقاً كل مركز من هذه المراكز أو كل أداة من هذه الأدوات - لأن ذلك بحث مستقل إذا مد الله في العمر وأعان - ولا أدعى كذلك أني سوف أتوسع في الحديث عن كل ركيزة من هذه الركائز وكل وسيلة من تلك الوسائل ، وإنما جهدي أن أعدد من هذه الركائز والوسائل ، ما أتيج لي أن أتعرف عليه . وأن أعرف بها تعريفا موجزا ، وآمل أن يتاح لي أو لغيري من المهتمين بقضايا الفكر الإسلامي والأمة الإسلامية ما يزيد المسلمين بصراً ومعرفة بهذه الركائز والوسائل والأدوات المعادية للإسلام ، وما يكشف بدقة عن خبايا هذه الركائز وما تجنّده من أعوان وأتباع .

هذه الركائز والأدوات مطلقات خطيرة لشين الغارات وراء الغارات على الإسلام فكراً وسلوكاً ، وعلى المسلمين أفراداً وهيئات ، وعلى بلاد المسلمين وخيراتهم في الحاضر والمستقبل .

وهذه الركائز كما بدت :

- ١ - الصهيونية أو اليهودية .
 - ٢ - التبشير بالمسيحية في المسلمين .
 - ٣ - الاستعمار المتحالف مع الصهيونية والتبشير .
- وأما المطلقات فهي : المبادئ والنظريات المعادية للإسلام مثل :

- ١ - الديمقراطية .
 - ٢ - الشيوعية والاشتراكية .
 - ٣ - القوميات بأنواعها العديدة .
- وأما الأدوات فهي : الفلسفات الهدامة التي تحركها وتتعاون معها في أغلب الأحيان ركيزة أو أكثر من تلك الركائز التي أشرنا إليها آنفا ، وهذه الفلسفات أو المذاهب هي :

- ١ - الوجودية .
- ٢ - القوضوية .
- ٣ - القاديانية أو الأحمدية .
- ٤ - البابية والبهائية .
- ٥ - الماسونية والروتاري وغيرهما .

فكل ركيزة من هذه الركائز - فيما يبدو لي - ركن عنيد ، تستعد فيه حملات الغزو الفكرى للعالم الإسلامى والمسلمين ، ثم تنطلق منه بعد أن تزود بالخطوة والأدوات والرجال والأموال والأعوان .

ولئن بدت هذه الركائز في نظر بعضهم متعادية أو متخاصمة ، فقد يكون هذا صحيحا حيناً ، وباطلاً وخداعاً حيناً آخر ، ولكن الأمر الذى لا يختلف فيه - ركيزة مع أخرى هو العداء الشديد للإسلام والمسلمين ، العداء الظاهر حيناً والمستتر حيناً آخر .

العداء الذى نشنه علينا أجهزة هذه الركائر ورجالها غير المسلمين حيناً ، والذى تشنه علينا
أجهزة ورجال مسلمون فى بعض الأحيان .
وإلى الحديث عن هذه الركائر .

الفصل الأول

الركائز

- ١ الصهيونية واليهودية
- ٢ التبشير بالمسيحية بين المسلمين
- ٣ الاستعمار المتخالف مع الصهيونية
- والتبشير والاستشراق ضد الإسلام والمسلمين

الصهيونية واليهودية

في مستهل الحديث عن هذه الركيزة ، أحب أن أنه على أمر ذى أهمية وهو أن اليهودية والصهيونية شيء واحد أو وجهان لعملة واحدة كما يقال ، وليس من الصحيح ما يهدف به المضللون أو المضلون من أن اليهودية دين والصهيونية فكرة قومية سياسية ، إذ الواقع أن الصهيونية تخدم اليهودية وأن اليهودية لها نفوذها وسيطرتها على أولئك الصهيونيين سياسيين وغير سياسيين كما كشف عن ذلك بعض علماء السياسة في أوروبا نفسها .

فالصهيونية حركة خبيثة هدامة ، تستهدف القضاء على المبادئ والقيم وكل ما هو غير يهودى : ومن مراحلها محاولة إقامة وطن لليهود في فلسطين المسلمة العربية ، وأما بقية مراحلها فهي خدمة اليهودية العالمية ، حتى يصبح العالم كله - مسلمون وغير مسلمين - في قبضة اليهود ونحت سيطرتهم كما تزعم نوزاتهم التى زيفوها حيث تقول : «سيقوم الرب وبقيس الأرض ويحبل عبدة الأوثان - الأثمين - تحت يد إسرائيل .. ويسلم جميع ممتلكاتهم إلى اليهود»^(١) .

وإذا كان بلفور سنة ١٩٢٦هـ الموافقة ١٩١٧م قد وعد اليهود بدولة في فلسطين يحميها الانتداب البريطانى فإن الأمر في معاونة اليهود على إنشاء تلك الدولة لم يقتصر على الإنجليز وحدهم ، وإنما قام الأمريكان في ذلك بأوفى نصيب - وبخاصة اليهود منهم - وكذلك فعل الروس والفرنسيون وكثير من الدول المعادية للإسلام والمسلمين .

ولكى نعرف على الصهيونية في حجمها الصحيح وعلى الخطر الذى تدبره للإسلام والمسلمين ولشعوب الأرض جميعا - الأثمين - أود أن نقرأ هذه الكلمة التى اعترف بها اليهود أنفسهم في مجلة لهم تسمى «مجلة الجامعة الإسرائيلية» أخضعها : لويس داتس

(١) التوراة : سفر الزمير : مزموذ ١٤٩ - ١٥٠ ط القاهرة .

1 Louis Daste « مؤلف الكتاب : « اليهود والجمعيات السرية » حيث وضع تلك الكلمات على غلاف كتابه ونصها : « نصادف في كل التغييرات الفكرية الكبرى عملا يهوديا ، سواء كان ظاهرا واضحا أو خفيا سريا : وعلى هذا فإن التاريخ اليهودي يمتد بامتداد التاريخ العالمي بجميع مجالاته ، حيث تتغلغل فيه بالآلاف الدسائس » (١) .

ويكاد يكون بين الكتاب إجماع على أن اليهود مصدر الفتن والثورات والاضطرابات في كل مكان تناله أيديهم ، يقول في ذلك : محمد عبد الله عنان : « يقرر الباحثون أن الدور الذي قام به اليهود في بث روح الثورة وإنشاء الجمعيات السرية وإثارة الحركات الهدامة عظيم جدا ومؤكد جدا ، فهم دعاة الثورة وقادة التقويض ، وعندهم يقول الكاتب العظيم « برنارد لازار » : اليهودي يضطرم بروح ثوري وهو داعية للثورة سواء شعر بذلك أم لم يشعر وبما يؤكد نسبة أكثر الحركات الهدامة السرية لليهود أنه تظهر دائما في هذه الحركات آثار التعاليم اليهودية الفلسفية » (٢)

وهذه كلمة ثالثة « لسرجي نيلوس » الذي كتب عن اليهود وادعى أنهم سيقومون دولة في إسرائيل : قبل قيام اليهود بتنفيذ ذلك بخمسين عاما على وجه التقريب .

يقول ذلك الكاتب : « ويستناد من الصهيونية اليهودية السرية أن سليمان والعلماء اليهود من قبل قد فكروا سنة ٩٢٩ قبل الميلاد في استنباط مكيدة لفتح كل العالم فتحا سلميا لصهيون .. »

وكانت هذه المكيدة تنفذ خلال تطورات التاريخ بالتفصيل وتكمل على أيدي رجال دربوا على هذه المسألة ، هؤلاء الرجال العلماء صمموا على فتح العالم بوسائل سلمية مع دهاء الأفعى الرمزية التي كان رأسها يرمز إلى المتفهمين في خطط الإدارة اليهودية ، وكان جسم الأفعى يرمز إلى الشعب اليهودي ، وكانت الإدارة مصونة سرا عن الناس جميعا حتى الأمة اليهودية نفسها ، وحالما نفذت هذه الأفعى في قلوب الأمم التي اتصلت بها سررت من

(١) د. أحمد شلبي : اليهودية : ٣٠٩

(٢) السابق : ٣٠٩ نقلا عن : محمد عبد الله عنان - تاريخ الجمعيات السرية والحركات الهدامة .

نحتها ، والتهمت كل قوة غير يهودية في هذه الدول .

والأفنى لابد أن عملها متصل وأنها معتصمة اعتصاما صارما بالخطة الموسوية حتى يفلق الطريق الذي تسعى فيه بعودة رأسها إلى صهيون ، وحتى تكون الأفنى بهذه الطريقة قد أكملت الضفافها حول أوروبا وتطويقها إياها ، وتكون لشدة تكييلها أوروبا قد طوقت العالم أجمع ، وهذا ما يتم انجازه باستعمال كل محاولة لإخضاع البلاد الأخرى بالفتوحات الاقتصادية .

إن عودة رأس الأفنى إلى صهيون لا يمكن أن تتم الا بعد أن تنحط قوى كل ملوك أوروبا ، أى حينما تكون الأزمات الاقتصادية ، ودمار تجارة الجملة قد أثرا في كل مكان ، هناك ستمهد السيل لإفساد الحماسة والنخوة - وللانحلال الأخلاقي ، وخاصة بمساعدة النساء اليهوديات المتكررات في صور الفرنسيات والإيطاليات ومن إليهن ، إن هؤلاء النساء أضمن ناشرات للمخلعة والتهتك في حيوات المترعمين على رؤوس الأمم .

والنساء في خدمة صهيون يعملن كأحاييل ومصابيد لمن يكونون بفضلهن في حاجة إلى المال على الدوام ، فيكونون لذلك دائما على استعداد لأن يبيعوا ضمائرهم بالمال ، وهذا المال ليس إلا مقترضا من اليهود ، لأنه سرعان ما يعود من طريق هؤلاء النسوة أنفسهن إلى أيدي اليهود الراشين ، ولكن بعد أن أشتري - هذا المال - عبيدا لهدف صهيون من طريق هذه المعاملات المالية ^(١) .

هذه هي الصهيونية أهم ركيزة من ركائز الغزو للإسلام والمسلمين ، تتخذ إلى ذلك كل سبيل وتسعى في كل مجال مشوهة للإسلام تاريخه وحضارته ومفسدة للأخلاق ومصطنعة للمشكلات والمتاعب ومثيرة للفتن والثورات ومقتنصة للعديد من المسلمين تضمهم - على وعي منهم أو غفلة - إلى مؤسساتها ومنظمتها كالماسونية والروتاري وسائر الأنشطة الاجتماعية والرياضية .

وهي كانت وماتزال معملا لتفريخ الأفكار الضارة والفلسفات الهدامة والمذاهب

(١) محمد خليفة التونسي : الخطر اليهودي : ٢١٤ - ٢١٥ ط بيروت الرابعة .

الضالة المنحرفة ، مع توجيه تلك الضربات إلى العالم الإسلامي أولاً ، وإلى سائر الناس بعد ذلك ، وهي في كل ذلك تتعاون مع سائر المراكز والركائز ، وتتقارب مع هذه المراكز وتتعاطف إلى حد أن كثيرين من اليهود وكثيرات من اليهوديات يدخلون في أديان مختلفة عن دينهم زورا وخداعا من أجل الوصول إلى أهدافهم الخبيثة الهدامة التي تحدثنا عنها آنفا .

التبشير بالمسيحية بين المسلمين

كلمة التبشير تعنى - كما يفهم ذلك من معاجم اللغة - الخبر الذى يفيد السرور إلا أنه بحسب أصل اللغة : عبارة عن الخبر الذى يؤثر فى البشارة تغيراً ، وهذا يكون للحزن أيضاً ، فوجب أن يكون لفظ التبشير حقيقة فى القسمين ^(١) .

وبعض علماء اللغة يرون أن الكلمة إذا أطلقت كانت للخير ، وربما حمل عليه غيره من الشر ، ويكون ذلك جنساً من التبيكيت ^(٢) .

وقد أطلق هذا الاسم فى الكتب الحديثة على المنظمات الدينية التى تستهدف تعليم الدين المسيحى ونشره فى دولة ما .

وقد اهتم الكنيسة بتوجيه جهودها إلى التبشير بالمسيحية فى العالم الإسلامى بالذات - فى القرون الأخيرة - لتقتلع الإسلام من نفوس الناس وتخل المسيحية محله ، مما يطلق عليه عند بعضهم « حملات التنصير » بوضع ذلك المبشر « رايد » فى قوله : « .. إننى أحاول أن أنقل المسلم من محمد إلى المسيح ، ومع ذلك يظن المسلم أنى فى ذلك غاية خاصة ، أنا لا أحب المسلم لذاته ، ولا لأنه أخ لى فى الإنسانية ، ولولا أنى أريد ربحه إلى صفوف النصارى لما كنت تعرضت له لأساعده » ^(٣) .

ويقول : كارل بكر المبشر الألمانى : « ان الإسلام لما انبسط فى العصور الوسطى أقام سداً فى وجه انتشار النصرانية ثم امتد إلى البلاد التى كانت خاضعة لصولجان للمسيحية »

ويكاد يجمع المبشرون فيما بينهم على الكلمة التالية التى جاءت على لسان المبشر

(١) لويدي : تاج لغروس ٣ : ٥٥ ط الخيرية مصر ١٣٠٦ هـ .

(٢) ابن فارس : معجم مقاييس اللغة ط المطبعى - مصر ١٣٨٩ هـ .

(٣) مصطفى الحاندى وعمر فروح : التبشير والاستعمار ١٩٢ ط بيروت .

جاردنر : «إن القوة التي تكن في الإسلام هي التي تخيف أوروبا» .

ويصرح لورانس براون بالهدق الحقيقي للبشرين من عملهم في العالم الإسلامي حين يقول : «إذا اتحد المسلمون في امبراطورية عربية أمكن أن يصبحوا لمة على العالم وخطرا ، أو أمكن أن يصبحوا أيضا قمة له ، أما إذا بقوا متفرقين فإنهم يظلون حيثئذ بلا وزن ولا تأثير»^(١) .

وكل البشرين وكل المستعمرين لا يخشون شيئا مثل ما يخشون الوحدة الإسلامية ، صرح بذلك المبشر القس سيمون حينما قال : «.. إذا كانت الوحدة الإسلامية تكتلا ضد الاستعمار الأوروبي ، ثم استطاع المبشرون أن يظهروا الأوروبيين في غير مظهر المستعمر ، فإن الوحدة الإسلامية حيثئذ تفقد حجة من حججها وسببا من أسباب وجودها»^(٢) .

يعترف بهذه النوايا السيئة عن الإسلام والمسلمين عدد من المبشرين مثل : صموئيل زويمر الذي يقول : «لا ينبغي للمبشر المسيحي أن يفشل ، أو أن يئأس ويقطع عند ما يرى أن مساعيه لم تثمر في جلب كثير من المسلمين إلى المسيحية ، لكن يكفي جعل الإسلام يخسر مسلمين يذبذبة بعضهم ، عندما تذبذب مسلما وتجعل الاسلام يخسره تعتبر ناجحا بأياها المبشر المسيحي ، يكفي أن تذبذبه ولو لم يصبح هذا المسلم مسيحيا»^(٣) .

ويعترف بذلك مبشر آخر هو : أ.ل. شاتيليه في مقدمة كتابه «الغارة على العالم الإسلامي» إذ يقول : «ينبغي لفرنسا أن يكون عملها في الشرق مبينا قبل كل شيء على قواعد التربية العقلية ، ليتسنى لها توسيع نطاق هذا العمل والتثبت من فائدته ، ويحذر بنا لتحقيق ذلك بالفعل أن لا تقتصر على المشروعات الخاصة التي يقوم الرهبان المبشرون وغيرهم بها ، لأن لهذه المشروعات أغراضا اختصاصية ، ثم ليس للقائمين بها حول ولا قوة في هيتنا الاجتماعية التي من دأبها الاتكال على الحكومة وعدم الإقبال على مساعدة المشروعات الخاصة التي يقوم بها الأفراد فتحي مجهوداتهم ضيعة بالنسبة إلى الغرض العام

(١) السابق : ٣٧ .

(٢) السابق : ٣٧ .

(٣) مولود قاسم : إنية وأصالة ط وزارة التعليم الأصلي بالجزائر .

الذى نحن نتوخاه ، وهو غرض لا يمكن الوصول إليه إلا بالتعليم الذى يكون تحت الجامعات الفرنساوية نظرا لما اختص به هذا التعليم من الوسائل العقلية والعلمية المبنية على قوة الإرادة .

وأنا أرجو أن يخرج هذا التعليم إلى حيز الفعل ليث في دين الإسلام العالم المستمدة من المدرسة الجامعة الفرنسية»^(١) .

ويعود نفس الكاتب بعد سطور من هذا الكلام ليقول : « وكنا منذ أمد بعيد نود أن نخوض في ذكر تفاصيل أعمال هذه الإرساليات التى اشتهرت بخطتها ووفرة الوسائل التى أعدتها وتوسلت بها لمقاومة دين الإسلام»^(٢) .

وفي نفس المقدمة يقول : « ولا ينبغي لنا أن نتوقع من جمهور العالم الإسلامى أن يتخذ له أوضاعا وخصائص أخرى إذا هو تنازل عن أوضاعه وخصائصه الاجتماعية ، إذ الضعف التدريجى في الاعتقاد بالفكرة الإسلامية ، وما يتبع ذلك الضعف من الانقراض والاضمحلال الملازم له سوف يفضى - بعد انتشاره في كل الجهات - الى انحلال الروح الدينية من أساسها لا إلى نشأتها بشكل آخر»^(٣) .

ثم يواصل : « ولكتنا نعود فنقول : إنه مهما اختلفت الآراء في نتائج أعمال المبشرين من حيث الشطر الثانى من خطتهم وهو (الهدم) فإن نزع الاعتقادات الإسلامية ملازم دائما للمجهودات التى تبذل في سبيل الترية النصرانية والتقسيم السياسى الذى طرأ على الاسلام سيمهد السبل لأعمال المدنية الأوروبية ، إذ من المحقق أن الإسلام يضمحل من الوجهة السياسية ، وسوف لا يمضى غير زمن قصير حتى يكون الإسلام في حكم مدنية محاطة بالأسلاك الأوروبية .

قد يظهر لإخواننا المسلمين أننا نتصرف في مستقبلهم بحرية وبدون تكليف ولكن من منهم ينكر أن العالم الإسلامى أصبح هدفا لغلطات فتان جمعية الاتحاد والترقى ، الذين

١. ٢٠ - ٣٠ - أ. ل. شاتليه : الغارة على العالم الإسلامى : ١٣ - ١٩ تعريب محب الخطيب ومساعد الباقى .

ورثوا عبد الحميد واستعانوا بوسائله السياسية بعد أن خلعه ، ولم تكن أمامهم وسيلة لإنقاذ السلطنة العثمانية والخلافة الإسلامية غير تنظيم حكومة مؤلفة من ولايات إسلامية متحدة ، وكل وسيلة غير هذه كانت تؤدي إلى نتيجة لا بد منها وهي تقسيم المملكة ^(١) .

ويقول المستر « بلس » : « إن الدين الإسلامي هو العقبة القائمة في طريق تقدم التبشير بالنصرانية في أفريقية والمسلم فقط هو العدو اللدود لنا » ^(٢) .

ولا أحب أن يفوتني نقل جدول أعمال المؤتمر التبشيري الذي عقد في القاهرة سنة ١٣٢٤ هـ ١٩٠٦ م ، فهو قادر على توضيح الصورة التي بضمها التبشير للإسلام والمسلمين ، أكثر من أى بيان .

وهذا الجدول قد تناول بحث المسائل الآتية :

- ١ - ملخص إحصائي عن عدد المسلمين في العالم .
- ٢ - الإسلام في أفريقية .
- ٣ - الإسلام في السلطنة العثمانية .
- ٤ - الإسلام في الهند .
- ٥ - الإسلام في فارس .
- ٦ - الإسلام في الملايو .
- ٧ - الإسلام في الصين .
- ٨ - النشرات التي ينبغي إذاعتها بين المسلمين المتنورين والمسلمين العوام .
- ٩ - التنصير .
- ١٠ - الارتداد .

(١) السابق : ٢٠ - ٢١ .

(٢) السابق : ٣٦ .

١١ - وسائل إسعاف المتضررين المضطهدين .

١٢ - شئون نسائية إسلامية .

١٣ - موضوعات تتعلق بتربية المبشرين والعلاقات بينهم .

١٤ - كيفية التعليم في الإسلام^(١) .

ولعل في هذه العجالة التي قلغناها عن التبشير ما يكفي للكشف عن نوايا المبشرين السيئة نحو الإسلام والمسلمين ، ولعل فيه كذلك إشارة ولو عابرة إلى أولئك الذين يدعون إلى التقارب بين الإسلام والمسيحية من المسلمين تنبيههم إلى ما يجب أن يتنبهوا إليه من ذلك الخطر الداهم الذي يهدد الإسلام والمسلمين من المبشرين بالمسيحية في بلاد المسلمين . ولا نستطيع أن نتجاهل أبداً أن التبشير كان الخطوة الأولى التي مهدت للاستعمار ومكّنته من الاستيلاء على بلاد المسلمين وتسخير أرضها وخيراتها وكثير من أبنائها لخدمة الأغراض السياسية والتبشيرية معا .

ومن هنا ندرك خطر هذا المركز في بث حملات الغزو الفكري المعادي للإسلام ودفع تيارات الحقد والذس والتشويه والتحريف نحو غايتها المرسومة لها .

(١) السابق ٥١٠ .

الاستعمار المتخالف مع الصهيونية والتبشير والاستشراق ضد الإسلام والمسلمين

لا شك في تحالف الاستعمار مع الصهيونية والتبشير والاستشراق وكل مذهب وفلسفة ، وكل جهاز ومؤسسة من أجل أن يصل إلى أهدافه وهي الاستيلاء على العالم الإسلامي استيلاء سياسياً حضارياً إن لم يتيسر الاستيلاء العسكري .

ونعني بالاستعمار في هذا البحث : استعمار دول الغرب لدول الشرق أو للعالم الإسلامي بقصد الاستيلاء على خيراته وأهله وتوجيه كل ذلك لخدمة مصالح المستعمرين .

وليس الاستعمار حديث الميلاد - كما يتوهم بعض الناس - وليس وليد رغبة دول الغرب في القضاء على دولة الخلافة العثمانية منذ قرنين من الزمان أو يزيد - كما يحلو لبعضهم أن يصوره - ليس هذا بصحيح ولا ذاك .

وانما للاستعمار أبعاد وجذور امتدت في ماضي الأمة الإسلامية ما يقرب من تسعة قرون من الزمان أي منذ الحملة الصليبية الأولى على العالم الإسلامي بقيادة بطرس الراهب سنة ٤٨٩ هـ - ١٢٤٩ م الذي وقع أسيراً في دار ابن لقمان بمصر ، والتي ما تزال دول الغرب حريصة على شب نارها حتى الآن ، كما أوضح ذلك القائد البريطاني أدmond هنري ألنهي الذي قاد الحملة البريطانية من مصر لغزو فلسطين سنة ١٩١٧ م حيث استولى على بيت المقدس وقال كلمته المشهورة : «الآن انتهت الحروب الصليبية» وقد كوفئ من دولته بمنحه رتبة «فيلد مارشال» ولقب «فيكونت» .

فلا نبالغ حين نقول : إن الاستعمار امتداد للحروب الصليبية ضد الإسلام والمسلمين ، وأن أهداف الحروب الصليبية قد أودعت في ثقة وأمانة في أيدي المستعمرين ليحققوها ، ولقد اعترف بذلك بعض الكتاب الأجانب ، فهذا «ريشر Richter»

يقول : «جهد الصليبيون طوال قرنين لاستعادة الأرض المقدسة من أيدي المسلمين المتحصنين ، فكان عهد الحروب الصليبية من أجل ذلك أروع العهود في العصور الوسطى كلها ... ولكن ذلك الجهد قد خاب وتراجعت الحملة الصليبية أمام سدود عنيدة من التعصب الإسلام»^(١).

وهذا «جاردنر Gairdner» يبدو أكثر صراحة من سابقه حيث يقول : «لقد خاب الصليبيون في انتزاع بيت المقدس من أيدي المسلمين ليقيموا دولة مسيحية في قلب العالم الإسلامي ... والحروب الصليبية لم تكن لإنقاذ هذه المدينة (القدس) بقدر ما كانت لتدمير الإسلام»^(٢).

ولم يعمل الاستعمار الحديث ضد العالم الإسلامي منفرداً وإنما اعتمد على الاستشراق من جانب وعلى التبشير من جانب آخر ، وقام هو بمجهوده الخاصة من جانب ثالث فكانت للاستعمار مؤتمرات وندوات وأجهزته ورجاله وأعوانه .

ولننظر الآن في محتوى مؤتمر استعماري ألماني ، تحدث فيه وسجل عنه كاتب يسمى : م . ك . اكسفلد وهو صاحب التقرير المختص بالإسلام في هذا المؤتمر وهو في الوقت نفسه سكرتير جمعية التبشير في برلين .

قال ذلك الكاتب عن المؤتمر الاستعماري في برلين : «إن المؤتمر الاستعماري امتاز بميزتين : الأولى أنه بحث في الشؤون الصناعية والاقتصادية ، والثانية إجماعه على وجوب ضم المقاصد السياسية والاقتصادية إلى الأعمال الأخلاقية والدينية في سياسة الاستعمار الألماني ، واستشهد بقول رئيس غرفة التجارة في هامبورج : أن نمو ثروة الاستعمار يتوقف على أهمية الرجال الذين يذهبون إلى المستعمرات ، وأهم وسيلة للحصول على هذه الأمانة إدخال الدين المسيحي في البلاد المستعمرة ، لأن هذا هو الشرط الجوهري للحصول على الأمانة المنشودة حتى من الوجهة الاقتصادية ، وحض السامعين على تقدير عمل المبشرين وإحلاله في محله اللائق به .

(١) . (٢) الخالدي وعمر فروخ : التبشير والاستعمار في البلاد العربية : ١١٥ .

ويبحث أعضاء المؤتمر الاستعماري في شئون تتعلق بالتبشير فكفوا المبشرين مؤونة الكلام عن أعمالهم ، ولم يشترك هؤلاء المبشرون في المداولات إلا عندما أخذ المؤتمر يبحث في أعمال فرعه الرابع - الخاص بالمسألة الإسلامية - فأفاض المبشرون وتوسعوا في القول حتى خيل للجميع أن المؤتمر الاستعماري تحول إلى مؤتمر تبشيري^(١) .

وتحدث بعده مبشر مستعمر آخر هو : بكر عضو مجلس المستعمرات في هيمبورج فأوضح موقف الحكومة وسياستها وعلاقتها بالتبشير من المسألة الإسلامية ، فقال : «إن الحكومة لا بد لها من القيام بترية الوطنيين المسلمين في المدارس العلمانية ما دام هؤلاء المسلمون ينفرون من المدارس المسيحية ، ونحن نعترف بهذه الحقيقة بالرغم من اعتقادنا بأن المدارس العلمانية تريد الإسلام نمواً وارتقاء .

وإذا نحن طالبنا الحكومة بتقدير مقاصدنا فيجب علينا بداهة أن ندرك أهمية هذه المعضلة من حيث واجبات الحكومة ومصالحها أيضاً^(٢) .

ومن أهم قرارات هذا المؤتمر الاستعماري الأتالي ما نقله الآن : -

١ - إن ارتقاء الإسلام يهدد نمو مستعمراتنا بخطر عظيم ، ولذلك فإن المؤتمر الاستعماري ينصح للحكومة بزيادة الإشراف والمراقبة على أدوار هذه الحركة .

٢ - المؤتمر الاستعماري - مع اعترافه بضرورة المحافظة على خطة الحياد تماماً في الشئون الدينية .

٣ - يشير المؤتمر على الذين في أيديهم زمام المستعمرات أن يقاوموا كل عمل من شأنه توسيع نطاق الإسلام ، وأن يزيلوا العراقيل من طريق انتشار النصرانية ، وأن يتفخوا من أعمال إرساليات التبشير التي تبث مبادئ المدينة خصوصاً بخدماتهم التهذيبية والطبية

٤ - من رأى المؤتمر أن الخطر الإسلامي يدعو إلى ضرورة انتباه المسيحية الألمانية لاتخاذ

(١) أ ل . شاتليه : الغارة على العالم الإسلامي : ١٣٦ .

(٢) السابق ٣٦ .

التدابير - من غير تسويق - في كل الأرجاء التي لم يصل إليها الإسلام بعد . (١)
وقد استطاع الاستعمار أن يجزب في البلدان الإسلامية ما وسعه التخریب ، ولجأ في ذلك إلى حيل وأنساب عديدة .

فتدخل الاستعمار بنفوذه وسلطانه لحماية المبشرين وتبرير إفسادهم لعقائد الناس ، وكأنه بذلك يرد لهم اليد التي سلفت لهم عنده .

واستطاع الاستعمار أن يشجع كثيرين من المسلمين على اعتناق الدين المسيحي ، وعلى حمل الجنسية الأجنبية ، وربت على ذلك كثيراً من الامتيازات .

وأعان الاستعمار الطوائف التبشيرية اليسوعيين والجزويت ، وغيرها من الطوائف على أن يقوموا بما قاموا به من إفساد وتشويه - مها غلفوا ذلك بأغلفة من المساعدات والخدمات .

واستطاع الاستعمار أن يصطنع الأسباب لإثارة الفتن والحروب والقلاقل في البلدان الإسلامية ، وبخاصة البلاد التي يحس المستعمرون أن تجمع المسلمين فيها - يثير سخطهم مثل تركيا ، ومصر والمغرب العربي ومنطقة الشام والجزيرة الفراتية ، فقضى الاستعمار بأساليبه الخبيثة على الاستقرار في هذه الأماكن وجعلها بركاناً يغل .

واستطاع الاستعمار في سبيل إضعاف المسلمين وحصرهم وحصارهم أن يقصمهم عن الشواطئ والثغور كما صرح بذلك شعيأ يومان مؤلف كتاب : الجغرافية السياسية للعالم الإسلامي .

واستطاع الاستعمار أن يقضى على معنويات المسلمين وأن يشعروهم بأنهم غرباء في بلادهم ، بما منحه من امتيازات للأجانب جعلتهم كأنهم أصحاب البلاد الأصليين .

واستطاع الاستعمار أن يقيم من الإدارات السياسية في داخل بلاد المسلمين ما يطبق عن طريقه سياسته الرامية إلى القضاء على كل نزع إسلامية أو دعوة إلى توعية المسلمين أو حركة استقلالية .

(١) السابق : ١٣٧ - ١٣٨ .

واستطاع الاستعمار أن يصبغ حياة المسلمين بصبغة الحضارة الغربية ، فيحول كثيراً من المسلمين إلى أعوان وأتباع لهذه الحضارة وأهلها .

واستطاع الاستعمار أن يشجع الدعوات القومية كالطورانية والفرعونية والفينيقية والبابلية والآشورية والبربرية والقومية العربية ، وكل هذه الدعوات إخمال لفكرة تجمع المسلمين حول الإسلام وليس القوميات .

وعن طرق أخرى عديدة استطاع الاستعمار أن يحارب الإسلام والمسلمين .

فمن طريق الدعوة إلى التطوير الاجتماعي للناس ومنحهم المعونات والمساعدات ومد يد الإحسان إليهم .. استطاع أن يستعبد النفوس ويشترى الذمم ، وفي إنشاء المدارس المفرضة والمشافي ودور العجزة وكبار السن ، وفي إنشاء النوادي الاجتماعية والرياضية وتنظيم جمعيات الشبان والشابات في كل ذلك استطاع الاستعمار أن ينفذ إلى أغراضه وأن ينفذ سمومه .

واتخذ وسائل أخرى للوصول إلى أهدافه المعادية للإسلام والمسلمين ، مثل السيطرة على التعليم وعلى الثقافة وعلى وسائل النشر والإعلام ، وعلى عديد من الكتاب والأدباء . وهكذا استطاع الاستعمار متعاوناً مع الركائز الأخرى المعادية للإسلام ، ومنفرداً بخططه وأساليبه ، استطاع أن يكون من أخطر المراكز التي تتبنى الغزو الفكري للعالم الإسلامي ، وتدفع في تيارات العداء أسوأ ما يحمله تيار إلى من يصل إليهم .

الفصل الثاني

المنطقات

النظريات والمبادئ المعادية للإسلام

① الديمقراطية

② الشيوعية والاشتراكية

③ القوميات بأنواعها العديدة

النظريات والمبادئ المعادية للإسلام

أعنى بهذه النظريات والمبادئ ، ما أصبح شغل الناس اليوم وموضع جلهم وخصامهم مما يسمونه : الديمقراطية والرأسمالية والشيوعية والاشتراكية وما يتفرع عن ذلك من نظم ، وما كان كالأصل لهذه المبادئ من فلسفات .

فهذه المبادئ والنظريات التي ذكرت تعادى الاسلام بما تشتمل عليه من نظم لا يعترف بها الإسلام ، وبما تركز عليه من أسس يحرمها لما تجلبه للناس من مضرة ولما تحرمهم به من منفعة .

فأغلب ما في هذه النظريات والمبادئ من نظم يستهدف تحقيق مصلحة فريق من الناس على حساب فريق ، ولا يقيم وزناً للقيم الخلقية ولا للآداب التي يجب أن يتحلى بها الإنسان الراشد المستنير ، وكل ما يؤدي إلى ذلك فهو في الإسلام محرم وخبيث .

فلا النظام الرأسمالي أو الحر - كما يقولون - وما يعيش في ظله من ديمقراطيات ، ولا النظام الشيوعي أو الاشتراكي وما يعايشه من حتميات وصراعات ، ولا الفلسفات القائمة على أساس المبالغة في تقدير قيمة الإنسان وتفضيله على الدولة ولا نظيرتها التي تتبالغ في سحق الإنسان وإهدار حقوقه باسم الدولة ، لا هذه الأنظمة ولا تلك يمكن أن تتفق مع الإسلام ومنهجه العادل الحكيم في تحقيق مصلحة الناس أجمعين وغرس الفضائل والآداب في نفوسهم ووضع الإنسان والدولة كل منهما في حججه الصحيح ، ووضعه السليم ، ومن هنا يكون العداء والصراع بين هذه النظم والنظريات وبين الإسلام .

وليس لهذه النظريات والمبادئ من هدف أكبر ولا أجل من أن نجد لها من الأعوان والأنصار من يطبقونها على أبناء الأمة الإسلامية فيباعد بها بين المسلمين ودينهم ويقارب بها بينهم وبين النظريات والمبادئ المعادية لهم ، وهم بذلك يحققون كسباً في اتجاهين خطيرين :-

الأول : إقصاء المسلمين عن دينهم ومنهجهم ونظامه .
والثاني : تحويل ولاء المسلمين عن دينهم إلى تلك النظريات والأنظمة والمبادئ .
ولقد كان -- وما يزال -- الهدف الأول من هذين هو شغل أعدائنا الشاغل ، لأنه
بالضرورة يؤدي إلى الوصول إلى تحقيق الهدف الثاني ، لذلك يبذلون في إغراق العالم
الإسلامي في خضم هائل من النظريات والمبادئ والنظم والقوانين الوضعية .

الديمقراطية

ففي ظل النظام الديمقراطي الذي يتغنى به كثير من الناس عارفين وغير عارفين ، والذي يراه بعضهم أمل الإنسانية المنشود ، وفردوسها الأرضي - كما يقولون - في ظل هذا النظام ومع تطبيق مبادئه وقوانينه ينظر المسلم الواعي الفاهم لدينه ومنهج هذا الدين في الحياة فيجد في الديمقراطية عيوباً صارخة تعود بالضرر على الفرد حيناً وعلى المجتمع حيناً آخر .

وهي عيوب نعد منها - في مجال هذا البحث - ولا نعدّها ، فمن ذلك افتراض الديمقراطية أن الجماهير هي مصدر السلطات وأن الشعب له السلطة الكلية والسيادة المطلقة .

هذا الافتراض عاجز قصير النظر سقيم الإدراك لا يعدو أن يكون خداعاً للجماهير وتمويهاً على الشعوب ، فما دام الإنسان في ذاته - بحكم خلقته وفطرته - غير مستقل بأمره كله في هذه الحياة التي يجباها ، بل يستحيل عليه بحكم سنن الكون وقواميسه أن يستقل بكل أمره فكيف بمجموعة متألفة من هؤلاء الأفراد يمكن أن تكون أهلاً للسلطة الكاملة والسيادة المطلقة ؟

ومن أجل هذا التناقض فإن الديمقراطية بعد تطبيقها وتبليغ الغافلين لها تتج واحداً من شكلين اثنين لحكم هذه الجماهير كلاهما أسوأ من أخيه ، فإما أن يؤدي نظامها إلى تركيز السلطة في أيدي قلة من الواعين المدركين أهل الرأي والقدرة فتصبح الدولة حيثئذ دولة هؤلاء المتأزين وحدهم ، وإما أن تتركز السلطة في أيدي أصحاب رؤوس الأموال ، وكلا الأمرين أضّر بالإنسان من الثاني .

والخصلة في كل من الأمرين أن الجماهير ليست مصدر السلطات وأن الشعوب ليس لها

السلطة الكاملة ولا السيادة المطلقة ، وإنما السلطات والسيادة في أيدي هذه القلة ، كما هو مشاهد في كل الدول التي تطبق النظام الديمقراطي .

وكيف يقبل الإسلام أن تقوم حياة الناس على أن تستغل طبقة منهم سائر الطبقات ؟ وكيف يقبل الإسلام أن يميز بين الناس ويفاضل بغير التقوى والعمل الصالح ؟

ومها حاول الديمقراطيون أن يصوغوا نظماً وأن يسنوا من قوانينهم الوضعية ما ينظم العلاقة بين الحاكم والمحكوم فإنها محاولات جديرة بالفشل والتخبط لأنها تقيم أسسها على أرض غير صالحة وتبنى مبادئها على افتراضات غير صحيحة .

أما الإسلام فإن قوانينه ونظمه ومنهجه كلها من صنع الله سبحانه ، رب الناس العالم بما يصلحهم ، وهي قوانين ونظم لا تفترض في الإنسان ولا تتدعه بأنه صاحب الاستقلال التام بحياته وصاحب السلطة الكاملة والسيادة المطلقة ، إذ يصرح الإسلام في هذا المجال بأن الأمر كله لله والسلطة كلها له ومنه يستمد الإنسان السلطة والأمر وفق الشرع الذي أوحاه إلى رسوله ووفق القوانين التي فصلها من لا ينطق عن الهوى ، صلوات الله وسلامه عليه ، فالإنسان مقيد بهذا الشرع وفي هذا التقيد به كل خير له في دنياه وآخرته .

والديمقراطية تقع في تناقض حاد حين تدعى أنها ينظمها تحقيق مصالح الجماهير كلها ، فما دامت هذه المصالح متضاربة بين فئة وأخرى من فئات هذه الجماهير فهذا التضارب الذي تعجز عن حله ، فلو تجاهلت هذه المصالح المتضاربة فقد تجاهلت مصالح الجميع ، ولو عيت بمصالح البعض دون البعض فذلك ظلم اجتماعي ليس له ما يبرره ، وهو الذي سيؤدي إلى الطبقية والامتيازات كما هو مشاهد الآن .

والديمقراطيون يمدحون أنفسهم ويمدحون الناس عندما يتصورون مجالسهم النيابية التي تتخب لتمثيل طبقات الشعب تعبر فعلاً عن مصالح الشعب !!!

فهؤلاء المتخبون سياسيون محترفون كل همهم أن يحققوا مصالحهم الشخصية ومصالح ذويهم وطبقاتهم دون بقية المصالح ، والبارع من هؤلاء السياسيين هو من يمدح هذه الجماهير عن نفسها ويحذرهما بإعلان البرامج والوعود ، ولنا على ذلك ألف شاهد وشاهد في عالمنا المعاصر .

الشيوعية والاشتراكية

وكذلك الشأن في النظريات والمبادئ الشيوعية أو الاشتراكية ، فهذه النظريات وإن كان أصحابها أكثر كلاماً وضجيجاً ودعاية وإعلاناً ، وأكثر قدرة على انتقاء الكلمات الفخمة الضخمة والعبارات الطنانة الرنانة إلا أنها تقوم - في الواقع - على خدمة طبقة بعينها ، مهما تشدقت بكلمات الشعوب والجماعات والمكاسب والانتفاضات والثورات والتقدميات والطلائعيات وأنى مكاسب تلك التى تحرم الإنسان من رغبته الفطرية فى أن يمتلك ثمرة عمله وجهاده ؟

أى تقدمية تلك التى تحرم على الإنسان الحرية فى أى شئ ؟
إن الإنسان فى ظل هذا النظام مسروق فعلاً بين المطرقة والسندان مطرقة الفتح الحاكمة المختارة من الحزب الواحد وسندان القاعدة الواسعة للحزب ، والإنسان فى ظل هذا النظام لا يستطيع أن يفكر ولا أن يعمل ولا أن يعبر إلا فى الإطار الذى يرسم الحزب أبعاده - وما تربيته الأطر المنبثقة عن الحزب الواحد المتسلط المستغل المهين لكرامة الإنسان هو المجال الوحيد الذى تتحرك فيه الفكرة أو الكلمة أو أى نوع من العمل ، ومن فكر فى غير هذا - وما أقل المفكرين - اعتبر من الثورة المضادة وسحقته المطرقة على السندان ، ومئات الضحايا من هؤلاء يعدون معوقات لمكاسب الشعب يجب أن تزول من الطريق لتندفع الطلائع التقدمية نحو مزيد من المكاسب الجماهيرية الشعبية !!!

وما وقع نظام من النظم فى تناقض صارخ كما وقع النظام الشيوعى والاشتراكى ، فالتناقضات التى وقع فيها هذا النظام كافية لحق مبادئه ونظرياته وما يدعوا إليه ، فلم يحقق الشيوعيون ولا الاشتراكيون نجاحاً فى أنحص ما يدعون إليه وهو النظام الاقتصادى وملكية الدولة لوسائل الإنتاج فإن التخبط فى هذا المجال بلغ مداه حتى لتوشك هذه النظرية أن تعلن على الملأ إفلاسها .

ولم يكن فشلهم في الاجتماع والسياسة بأقل من فشلهم في الاقتصاد وتوجيه رأس المال ، وكم قرأنا وسمعنا عن الرغبة في العودة لنظام الأسرة بعد إلغائه وإلى تشجيع العمال بالحوافز الإنتاجية ليجيدوا أعمالهم ، وكم سمعنا عن دولة تبنت النظام الشيوعي أو الاشتراكي ثم انقلبت عليه أو عدلت فيه ووقفت تناهضه وتعاديه !!!

وليس فيما رآه «هيجل» ولا ما تابعه أو خالفه فيه «كارل ماركس» غناء أو نفع للإنسان ، فليست العملية الجدلية عند هيجل ولا المادية التاريخية أو الجدلية عند ماركس بخارجة عن نطاق يتبع نتيجتين اثنتين يتغنى بهما أتباع هذه النظريات بينما لا تستساغ واحدة منهما في عقل عاقل ، فضلاً عن مصادمتها للدين والأخلاق والنظم الاجتماعية الراشدة . وأولى هاتين النتيجتين أن الدين والأخلاق والفضائل والعلم والفلسفة مظاهر للروح العالمية السائدة في عصر من العصور (فلا إله ولا خالق ولا وحى ، ولا أنبياء ولا مرسلين ولا ولا الخ) .

وثاني هاتين النتيجتين : أن مدينة ما عندما تنضج وتبلغ رشدها يتولد عنها طائفة ذات ميول وأفكار جديدة تصارعها وتحاربها وتنكر لكل معطياتها ثم تأتى هي بالجديد (فلا ثبات ولا استقرار ولا اعتراف بخالق ولا رب ولا خلق ولا فضلية ولا ولا الخ) .

وقد زاد أتباع ماركس على هاتين النتيجتين نتيجة ثالثة ملخصها أن الدين والخلق والقانون متولد أبداً عن النظام الاقتصادى لمجتمع ما من المجتمعات (فلا إله ولا خالق ولا دين ولا خلق ولا ولا الخ) .

هذه هي النظريات والمبادئ الشيوعية والاشتراكية في كلمات فقط وتلك هي مناقضاتها للإسلام ، وهذه حربها للإسلام والمسلمين ما يحملها أحد من الناس الذين يتابعون الأحداث ويرقبون أعمال أصحاب هذه النظريات .

فهى إذن من أخطر المراكز التى تنطلق منها حملات الغزو الفكرى للإسلام والمسلمين ، وتتخذ منها تيارات العداء للإسلام زادها وتستمد منها قوتها ووحشيتها في تسديد الضربات للفكر الإسلامى وللمجتمعات الإسلامية في كل مكان تناله أيديهم .

القوميات بأنواعها العديدة

القوميات التي تعصف بالعالم الإسلامى اليوم ، بل بكثير من بلاد العالم ، ليست إلا وليدة النظرة الضيقة للحياة والأحياء ، وهى وإن حملت فى ظاهرها رغبة أصحابها فى أن يكون لهم كيان خاص ومصلحة خاصة إلا أنها تنطوى على نزعة تعصبية عرقية عظيمة تتجاهل أبسط المسلمات عند الناس وهى أن الناس جميعاً لآدم عليه السلام .

ولندع جانباً التطور التاريخى للقوميات لأن ذلك يخرج بنا عن موضوع البحث ، ولنكتف بالنظر فى هذه القوميات فى هذين القرنين من الزمان الذى نعيشه كما جعلنا ذلك إطاراً زمنياً للبحث .

فالقومية المعاصرة صدرها لنا مفكرو أوروبا وسيلة من وسائل الغزو الفكرى للإسلام والمسلمين ، وهى تنفى عندهم : رفع شعار وطنى يتمكن به جمع من الناس من أن يتوحدوا عليه فى ظل حكومة مركزية ، كما فعل نابليون عندما استحدثت القومية الإيطالية والقومية الألمانية . وهو أمر أدى فى نظر المفكرين إلى تفكيك الوحدة الأوروبية الموروثة عن الإمبراطورية الرومانية . هذه الوحدة الأوروبية التى حافظت عليها ورعتها الكنيسة الكاثوليكية طوال ما يعرف عندهم بالقرون الوسطى والحق أن شعار القومية وشعار الوطنية شئ واحد .

وأول ما غزت هذه الفكرة القومية العالم الإسلامى فى العصر الحديث كان فى عهد نابليون كذلك ، حيث عانت جنوده فى مصر من حرب ترفع شعار : « الله أكبر والعزة للمسلمين » ، فلم يجد نابليون حلاً لهذه الوحدة إلا أن يخرج على الناس - بوساطة العلماء المستشرقين المصاحبين لحملته على مصر - بفكرة القومية ليفتح بها وحدة الأمة الإسلامية . فتركزت خططهم على الادعاء بأن العثمانيين ليسوا إلا شعباً آخر غير الشعب المصرى وأن

هذا الشعب التركي لا يربطه بالمصريين إلا الدين - والدين ليس له أن يتعدى الطقوس إلى النواحي السياسية - واهتم الفرنسيون حينذاك بإقناع الناس بأن دولة الخلافة العثمانية دولة استعمارية جاهلة متخلفة .

ويؤكد الدكتور فيليب حتى العري اللبناني المسيحي الموالي لحضارة الغرب المعادي للإسلام وأهله ، يؤكد أن القوميات وافدة علينا من الخارج حيث يقول : « كان من نتيجة الاحتكاك بين العقلية السورية والتاج الفكري الغربي أن تولدت مبادئ القومية العربية الشاملة ، واستمدت وحيا بالأكثر من النظريات السياسية الأمريكية ، بخلاف 'قومية التركية التي جاءت متأخرة عن العربية والتي استمدت الهامها من مبادئ الثورة الفرنسية .

ولقد كان ظهور مبادئ القومية العربية في العقد السابع من القرن الفائت (العقد التاسع من القرن الثالث عشر الهجري) على يد رجال الفكر السوريين وغالبهم من اللبنانيين المسيحيين الذين تتقفوا في المدارس الأمريكية في بلادهم»^(١) .

ويعود فيؤكد هذا الاستيراد فيقول : « وما لا ريب فيه أن القومية إنما هي بضاعة غربية استوردتها العالم بما فيه الشرق العربي من أوروبا»^(٢) .

ويكشف عن خبايا هذه القوميات وتأثرها بأوروبا المسيحية ورغبتها في إقصاء الإسلام عن حياة المسلمين ، الكاتب المعروف بصليبيته «حازم نسيه» : حيث يقول : « بدأت فكرة القومية العربية في أوساط المثقفين المسيحيين قبل أن تبدأ عند المسلمين .. إذ كان المسيحيون على صلة وثيقة بالثقافة الغربية ، وأقرب إلى التأثير بتياراتها وسبق لهم أن اطلعوا على التاريخ العربي من خلال الدراسات الغربية الحديثة .

وقد انصب المستشرقون في القرن التاسع عشر بكل قواهم على بحث النواحي الدينية أكثر مما اهتموا بالنواحي اللاهوتية من التاريخ العربي الذي أظهر أن الامة العربية أقامت

(١) فيليب حتى : العرب : تاريخ موجز : ٢٥٦ .

(٢) السابق : ٢٥٧ .

حضارة متقدمة راقية قبل الإسلام وبعده على السواء ، وبهذا لم تكن الحضارة العربية إذن حادثاً دينياً صرفاً لا يملك العرب والنصارى أن يشاركوا فيه ، بل العكس هو الصحيح ، وهو أن تلك الحضارة ملامح متقطعة الصلة بالدين كما أثبت الواقع الذى انصب الباحثون الغريون على كشفه»^(١) .

فالقوميات المصطنعة بشكوها وألوانها فى العالم الإسلامى كله كالطورانية والفرعونية والفينيقية والبربرية وغيرها ما هى إلا معاول هدم للإسلام وللوحدة التى يقيمها بين معتقيه ويجعلها أكبر وأجل من روابط الجنس واللون والإقليم واللغة ، وهذا هو هدف الذين يصطنعون هذه القوميات .

ومن عجب أن يستجيب بعض المسلمين لهذه الدعوات الهدامة ويخذلون أعلامهم وجهودهم لها .

فهذه القوميات من أخطر مراكز الغزو الفكرى للإسلام والمسلمين فى عصرنا هذا .

(١) القومية العربية فكرتها -- نشأتها -- ترجمة عبد اللطيف شرارة .

الفصل الثالث

الأدوات

الفلسفات الهدامة

- ① الوجودية
- ② الفوضوية
- ③ القاديانية أو الأحمدية
- ④ البابية والبهائية
- ⑤ الماسونية والروتاري

الفلسفات الهدامة

هذه الفلسفات تؤثر في الركائز التي تحدثنا عنها كالصهيونية والتبشير والاستعمار والنظريات والمبادئ الهدامة ، ثم تتأثر بها في كثير من الأحيان فتستخدم أهدافها وتعين على الوصول إليها ، وهي في بعض الأحيان تغذيها وتوجهها وتوضح لها الطريق .

وقد يبدو للناظر أن هذه الفلسفات وما تردده من أفكار وما تروجه من أزياء الفكر والسلوك بمعزل عن تلك الركائز والوسائل المعادية للإسلام ، والحق أن هذه الفلسفات من تلك الركائز ، وتلك الركائز من هذه الفلسفات ، ما يجهل ذلك من مثققي المسلمين أحد .

وإذا كانت بعض هذه الفلسفات تستهدف تحطيم القيم الخلقية في الناس ، والقضاء على نوازع الخير فيهم ، فإن أغلب هذه الفلسفات تقف من الإسلام موقفاً واحداً هو العداء والرغبة الشديدة في صرف الناس عنه بما تبتدع لهم من أفكار وما ترغيبهم فيه من أنماط سلوكية تقتلع من نفوسهم الإيمان بالله والإيمان برسله وأنبيائه ، بل تقتلع منهم الاحترام لأي فضيلة نادى بها الإسلام ، وتزيف عليهم الأمور فتقلب لهم الحق باطلاً والفضائل رذائل .

ومن أبرز هذه الفلسفات الهدامة والمعادية للإسلام والمسلمين - فيما أرى - الوجودية .

فلنلق عليها بعض الضوء في هذه السطور .

الوجودية

وهى فلسفة مليئة بالتناقض خارجة على حدود كثير مما يقره العقل ويرضاه المنطق ، فضلاً عن مخالفتها لما جاء به الإسلام من منهج رضىه للناس ديناً ونظماً فى حياتهم الدنيا ، فالوجودية من هذه الزاوية تعد من أهم المراكز التى تحارب الإسلام بإشاعة مبادئها الضارة المنحرفة ، المناقضة للفطرة الإنسانية التى فطر الله الناس عليها .

فالوجوديون - على اختلاف ما بينهم - يتفقون جميعاً على مبدأ واحد هو تقديس حق الفرد وحمايته من طغيان الجماعة عليه ، بعد ظهور الديمقراطية الحديثة ، ثم ظهور الشيوعية والفاشية فى العهد الأخير ، وهم يبنون مبادئهم هذا على اعتبارهم أن الفرد هو الموجود الحقيقى فى الخارج : وأن النوع الإنسانى لا وجود له إلا فى عالم التصور والفروض الذهنية ...

وتقديس حق الفرد هو الجانب السليم فى الوجودية ... أما السخف والمرض فإنما يظهران عند الانتقال من تقرير وجود الفرد إلى النتائج التى تترتب على هذا فى اعتقادهم ، ثم يبلغ السخف غايته حين يخلطون بين وجود الفرد وغاية الوجود كله ، ومنهم من يقول : إن الوجود كله عبث لا معنى له على الإطلاق ولا غاية من ورائه لمخلوق ولا لخالق .

يظهر السخف والمرض حين يقولون أن الفرد هو الموجود الحقيقى ويرتبون على ذلك أنه لا معنى إذن للقول بالطبيعة البشرية والقول بالأخلاق التى تفرضها هذه الطبيعة ، أو بالأقدار التى رسمت لها طريقها قبل أن تبرز إلى عالم الوجود^(١) .

(١) عباس محمود العقاد : بين الكتب والناس ٢٦ ط بيروت ١٩٦٦ م .

ثم يتحدث العقاد عن الوجودية في روسيا والوجودية في فرنسا ويوضح بينهما فروقاً هامة ، ثم يخصّ وجودية فرنسا بحدث يقول : «إنما وجدت في فرنسا مدرسة الوجودية الإباحية إلى جانب الوجودية الأخلاقية لأسباب غير تلك الأسباب التي أشرنا إليها ، وهى الأسباب التي لا مشابهة فيها بين نشأة الوجودية الروسية ونشأة الوجودية الفرنسية .

وجدت تلك المدرسة الإباحية لأسباب تتعلق بعضها بفرنسا ويتعلق بعضها الآخر «بسارتر» إمام تلك المدرسة .

أما الأسباب التي تتعلق بفرنسا فهي الولع «بالزى الموسمى» الذي يتخذ صورة النحلة الاجتماعية ، كما لحظناها في المقالين السابقين .^(١)

وأما الأسباب التي تتعلق «بسارتر» فهي اختلال تكوينه واتصال نسبه بالصهيونية . ففي تكوينه دلائل اختلال تبدو أعراضها في شيء كالشلل يعترى شقه الأيمن ، وهو في نسبه نصف يهودى أو أكثر من نصف يهودى - لأن أمه يهودية ومعظم أيامه يقضيها بين اليهود ، وله عناية شديدة بالدفاع عن السامية والحملة على حركة المقاومة لها ...

ذلك هو فحوى الفارق بين وجودية تخرج إلى التصوف كما خرج «برديف» ووجودية تخرج إلى الإباحية كما خرج سارتر ، ولن تفهم المدارس الحديثة في أوروبا ما لم تفهم هذه الحقيقة التي لا شك فيها ، وهى أن أصبغاً من الأصابع اليهودية - كامنة وراء كل دعوة نستخف بالقيم الأخلاقية وترمى إلى هدم القواعد التي يقوم مجتمع الإنسان في جميع الأزمان عليه .

فاليهودى كارل ماركس وراء الشيوعية التي تهدم قواعد الأخلاق والآداب وتقوض دعائم الأوطان والأديان .

(١) مقال : المدارس الأدبية في الغرب ومقال اليهودية - الجانب السليم منها .

واليهودى دور كاييم وراء علم الاجتماع الذى يلحق نظام الأسرة
بالأوضاع المصطنعة ويحاول أن يبطل آثارها في تطور الفضائل والآداب .

واليهودى - أو نصف اليهودى - سارتر وراء الوجودية التى نشأت معززة
لكرامة الفرد فجئح بها إلى إباحة حيوانية تصيب الفرد والجماعة معاً بأفات
القنوط والانحلال»^(١) .

فالوجودية إذن مركز خطر من مراكز الغزو الفكرى للعالم الإسلامى ،
تمد تيارات العداء للإسلام بكل المقومات التى تدفع به نحو غايته .

(١) السابق ٣١ - ٣٣ .

الفوضوية

وهي من الفلسفات الهدامة المعادية بذاتها ومبادئها لكل نظام وكل قانون . والتي تقف من الإسلام بوصفها ذاك موقف العداء والتحدى ، وقد بلغ من سفه ما تنادى به أنها لاتعترف بنظام إذ ترى الدولة أداة للاستبداد بالأفراد في أى نظام اجتماعى . ولذلك تنادى بضرورة مقاومة الدولة والأنظمة التى تنبثق عنها في صورة فوضوية لها من اسم هذه الفلسفة نصيب أكبر نصيب .

ولقد يتصور أن الفوضوية وهي تنادى بتقويض الدولة وإلغاء أنظمتها إنما تفعل ذلك محافظة منها على الفرد وحقوقه ...

ولكن هذا التصور يذهب هباء حينا نعلم أن الفوضوية تنادى بأن الملكية الفردية مبعث الظلم وأنها من أجل ذلك تطالب بإلغاء الملكية الفردية الغاء تاماً !!!

وهذا أعجب العجب فيما ينادى به مذهب فلسفى حين ينادى بإلغاء الدولة لأنها تستبد بأنظمتها بالأفراد وبإلغاء الملكية الفردية لأنها مبعث الظلم .

ومن بين ماتنادى به الفوضوية الثورة على كل سلطة منظمة . ونحذى كل قانون ونظام .

والفوضويون يقولون - على الرغم من كل مادعوا إليه - يقولون بأنه لاوجود للحرية الكاملة .

ويقولون بأن العدالة المطلقة لايمكن أن تتوفر في ظل نظام يقوم على

فكرة الدولة والملكية الفردية .

نعم إنها فوضى حقيقية تدعو إليها هذه الفلسفة وبعض الباحثين يعتبرون
الفوضوية مذهبا سياسيا واقتصاديا متطرفا^(١) .
والحق أنها فوضى وكفى .

ومما هو قريب من الفوضوية ما يدعو إليه الآن بعض العابثين بالشباب
ومستقبله من العرى والخنفسة وتحنت الرجال وترجل النساء ، وكل شاذ
غريب مما يشوه إنسانية الإنسان وياعد بينه وبين التكريم الذى خصه به الله
سبحانه من بين سائر مخلوقاته .

هذه الفلسفات والمذاهب معاول هدم لكل فضيلة وحرب على الأديان
وعداء سافر للإسلام والمسلمين . وهى من أخطر مراكز الغزو الفكرى
والتيارات المعادية للإسلام .

(١) الموسوعة العربية الميسرة : ١٣٣٤ .

القاديانية أو الأحمدية

وهي من المذاهب الهدامة للإسلام التي اصطنعها أعداء الإسلام من المستعمرين . واختاروا أكثر بلاد المسلمين ازدحاما بالمسلمين - شبه القارة الهندية - وقد كان من هدف هؤلاء الأعداء باستحداث هذه المذاهب وغيرها أن يزيدوا من هذه الخلافات المذهبية بين المسلمين ، وأن يعمقوا في نفوس المسلمين البعد عن دينهم الصحيح باغراقهم في هذه الأباطيل والخرافات .

فالقاديانية مذهب خبيث هدام أنشأه ومّوله وساعده أعداء الإسلام من المستعمرين الإنجليز في الربع الأخير من القرن الثالث عشر الهجري - الثالث الأخير من القرن التاسع عشر الميلادي - يوم استطاع هؤلاء المستعمرون أن يقتنصوا من بين المسلمين رجلا تقلب أبوه في خدمة الإنجليز ونعمتهم ، ونشأ هو كما نشأ أبوه خادما ذليلا لأعداء دينه - ذلك هو غلام أحمد القادياني المولود في بنجاب سنة ١٢٥٥ هـ - ١٨٣٩ م فقد غرس الإنجليز بذور هذا المذهب الخبيث في شبه القارة الهندية -- وكانت مستعمرة لهم - وقد نمت البذرة وخرجت على المسلمين بالكفر البواح والشرك الصراح وخاض مأفونها في ذات الله وشخصية الرسول ﷺ ماشاء له ضلاله وما أرضى سادته وموجهيه .

وقد انتقلت ثمار هذه البذور إلى أفريقية بين المسلمين هناك . فسمى القاديانيون هناك أنفسهم «أحمدية» توحىها على الناس وإيهاماً لهم بأنهم متسبون إلى النبي ﷺ . بينما لحق أنهم يتسبون إلى غلام أحمد القادياني .

ولا أحب أن أفصل الحديث عن القاديانية في هذا البحث ولكني أشير

بها إشارات تدل عليها وتكشف خبث مواردها ومصادرها ، وأن أدبها بما قاله مؤسسها غلام أحمد القادياني ، وبمعى ذلك في هذا المجال لكى أكشف عن خيانتها وضلالها وعمالتها للإنجليز .

أولاً : من كلمات غلام أحمد القادياني :

١ - أكثر من دخلوا في جماعتي هم أعضاء الحكومة الإنجليزية الشاغلين المناصب العليا أو رؤساء هذه البلاد وتجارها . أو المحامون والمتعلمون الدراسة الإنجليزية أو العلماء والفضلاء الذين خدموا الحكومة الإنجليزية في الماضي أو يخدمونها الآن وأقاربهم وأحبابهم . فالحاصل أن هذه الجماعات كونت من مربيها الحكومة الإنجليزية وحصلت على رضاها وأصبحت مورد إنعاماتها . . فأننا والعلماء الذين اتبعوني بينوا للناس إحسانات هذه الحكومة ورسخوها في ألوف القلوب ^(١)

٢ - نحن نتحمل كل البلايا لأجل حكومتنا المحسنة وستحمل أيضاً في المستقبل لأنه واجب علينا أن نشكرها لإحسانها ومنها علينا . ولا شك نحن فداء بأرواحنا وأموالنا للحكومة الإنجليزية . ودوما ندعوا لعلوها ومجدها سرّاً وعلانية ^(٢)

٣ - نص العريضة التي قلمها علام أحمد لنائب الملك في الهند وهي : « العريضة التي أعرضها إلى حضرتكم مع أسماء أتباعي ، ليس المقصود منها إلا أن تلاحظوا الخدمات الجليلة التي أدبت أنا وآبائي في سيلكم ، وكما ألتبس وأرجو من الدولة العالمة أن تراعى الأسرة التي أثبتت بكمال وفائها وإخلاصها طوال خمسين سنة بأنها من أخلص المخلصين للحكومة والتي أقر وأعترف بولائها أكبر أمراء الحكومة العظمى

(١) المحافظ إحسان إليسى ظهير : القاديانية : ٧٠ ، ٦ .

(٢) السابق : ٢٦ .

وحكامها وكتبوا لها وثائق وشهادات على أن هذه الأسرة أسرة خدام وأسرة
مخلصة ، فلذا أرجو منكم أن تكتبوا للحكام الصغار برعاية هذه الشجرة وحفظها .
التي ما غرسها إلا أنتم ، كما أرجو أن ينظروا إلى أتباعي بنظرة خاصة ودية ، لأننا
ما تأخرنا من التضحيات في سبيلكم لا بالنفوس ولا بالدماء كما لا تأخر بعد ذلك
فلأجل هذه الخدمات الجليلة نستحي أن نطلب من الحكومة العظيمة المد والعون
لكي لا يحرؤ أحد علينا »^(١)

ثانيا : من كلمات خليفة غلام أحمد وولده :

١ - حينما دخلت جيوش إنجلترا العراق المسلم مستصرة مزهوة بالقضاء
على حصن من حصون الإسلام أقام القاديانيون حفلا أعلنوا فيه
سرورهم وفرحهم بهذا الانتصار . وألقى خليفة غلام أحمد وولده
خطاباً بهذه المناسبة هذا بعضه :

« إن علماء المسلمين يهتموننا بتعاوننا مع الإنجليز ويطعنوننا على
ابتهاجنا على فتوحاتها فنحن نسأل لماذا لا نفرح ؟ ولماذا لانسر ؟ وقد
قال إمامنا : بأنى أنا مهدي وحكومة بريطانيا سني - فنحن نبتج
بهذا الفتح ونريد أن نرى لمعان هذا السيف وبريقه في العراق وفي
الشام وفي كل مكان . . . إن الله أنزل ملائكته لتأييد هذه الحكومة
ومساعدتها »^(٢)

٢- عندما جند القاديانيون رجلين منهم للتجسس على المسلمين في
أفغانستان لحساب الإنجليز هناك فقبض على الجاسوسين وأعدما كتب
خليفة غلام أحمد وولده يقول : لو سكت رجالنا في أفغانستان وما
أظهروا عقيدتنا في الجهاد لما كان عليهم شيء . ولكنهم ما استطاعوا

(١) السابق ٢٨ - ٢٩ .

(٢) السابق ٣١ .

أن يكتسبوا حبهم ومودتهم لحكومة بريطانيا التي حملوها من عندنا
فلذلك لقوا حتفهم»^(١)

أما تطاول القادياني وخليفته وأتباعه على مقام الرسول صلى الله عليه وسلم وعلى المسيح عيسى بن مريم عليه السلام . فلا أبيع لنفسي أن أذكره . كذلك ما تحبط به في فهم القرآن الكريم - مما يدل على جهله وضلاله . وما كتبه ذلك المأفون من نبوءات تكشف عن حمقه وسفاهته .
فالقاديانية -- ركيزة من ركائز الغزو الفكري للإسلام والمسلمين حتى يومنا هذا

(١) السابق : ٣٢ .

البابية والبهائية

البابية والبهائية من المذاهب الخطرة والفلسفات المعادية للإسلام . والتي كان لليهود فيها يد طولى . وإن اختيار بلاد فارس ليفرخ فيها هذان المذهبان لم يكن عبثا من المدبرين والكائدين للإسلام .

فبلاد فارس ظلت على مدى فترات طويلة من تاريخ الإسلام مصدرا للقلق والفتن والحركات المعادية للإسلام .

وأثر اليهود في الحركتين الحيثيتين واضح لا نجد عليه من الأدلة ما هو أنصع ولا أقوى من أن رعيم البهائية في فترات ما من تاريخها كان أحد حاخامات اليهود .

منشأ البابية - التى هى أصل البهائية - أن الميرزا على محمد الشيرازى . أغواه يهوديان فأوهماه أنه سيكون له شأن ، وأدخلا في روعه أنه سيصبح منقذ الإنسانية . فتأدى بما يتأدى به اليهود . فأنكر البعث والجنة والنار . وقال بوحدة الوجود كما يقول اليهود وأودع ذلك في كتابه «البيان» وصادت دعوة الميرزا هوى و نفوس بعض الضالين من الفرس . فآغتر ميرزا بهذا وسمى نفسه «الباب» أى الطريق الوحيد الذى يوصل الإنسان إلى الله . وسميت الفرقة التى تبعته «البابية» ثم زاد غرور هذا المخدوع فادعى أنه «النقطة» أى منبثق الحق وروح الله ، وجعل الباب إليه أحد مريديه المخلصين له واسمه «حسين بسرويه» من خراسان .

وفى مؤتمر برشت ١٢٦٤ هـ - ١٨٤٧ أعلن البابيون انسلاخهم عن الإسلام . وحاربوا الإسلام واللغة العربية ودخلوا مع الحكومة في فارس في

حروب ومنازعات أدت في النهاية إلى إصدار الحكم بإعدام الميرزا «النقطة» وخبا صوت هذه الفلسفة الضالة . والمذهب المعادى للإسلام حيناً غير طويل من الزمان . ثم أخذ أتباعه يعملون في الحفاء والسرية ودخل فيها عدد كبير من اليهود .

وفي عام ١٢٨٥ هـ - ١٨٦٨ م خرجت البابية من عكا باسم جديد هو البهائية نسبة إلى زعيمها الجديد ميرزا حسين علي المازندراني الذي يلقب «بهاء الله» ومن المقرر أن حياة البهائيين في عكا بين جماعات اليهود أثرت فيها تأثيراً كبيراً وباعدت بينها وبين الإسلام إلى حد أنها أصبحت وجهاً آخر لليهودية .

ولما مات البهاء في عكا خلفه ابنه عباس أفندي الذي كان في خدمة الخلفاء أثناء الحرب العالمية الأولى فأنعمت عليه بريطانيا بلقب سير وبرتبة فارس ولما توفي عام ١٣٥٠ هـ - ١٩٣١ م خلفه ابن بنته «شوق رباني» الذي مات دون أن ينجب ولداً .

وقد رعى اليهود - ولا يزالون يرعون - البهائية ودفعوا بها إلى أقطار الأرض يؤيدونها بالفكر والمال . فأصبحت حركة صهيونية أمريكية وأسفرت عن وجهها الصهيوني حين توفي ميرزا شوق رباني فاجتمع المجلس الأعلى للطائفة البهائية في إسرائيل وانتخبت صهيونيا أمريكيا اسمه : ميسون : ليكون رئيساً روحياً لجميع أفراد الطائفة البهائية في العالم كله .

الماسونية والروتارى

الماسونية . ونوادى «الروتارى» لونا من نشاط اليهود المعادى للأديان
عموما وللإسلام على وجه الأخص .

فالماسونية جمعية سرية أنشأها اليهود لممارسوا من خلالها الأعمال
التي توصلهم إلى أهدافهم وأغراضهم . ولأن هذه الجمعية من الجمعيات
السرية اختلف الباحثون فى تاريخ إنشائها . فمن الباحثون من يربطها
بالكهانة فى عهد الفراعنة . ومنهم من يربطها ببيكل سليمان . ومنهم من
يربطها بالحروب الصليبية . ومنهم من يربطها بجمعية الصليب الوردى سنة
١٦١٦ م . ومنهم من يقول أنشئت فى القرن الثامن عشر الميلادى .

ويكاد يجمع الباحثون على أن الماسونية هى جمعية البنائين الأحرار التي
وجدت منذ أقدم العصور فى مصر وفلسطين واليونان .

وأهداف الماسونية الحقيقية كما يقول الحاخام الدكتور «اسحق وايز» :
مؤسسة يهودية . وليس تاريخها ودرجاتها وتعاليمها وكلمات السر فيها وشروحها
إلا أفكاراً يهودية من البداية للنهاية ^(١)

أما أهدافها الظاهرية كما يقول مكاريوس شاهين : فهي : «جمعية
أدبية تخدم الإنسانية وتنور الأذهان وتنشر الإخاء . وتوطد الحب بين
الأعضاء وتحثهم على الخير والإحسان لإخوتهم المحتاجين» ^(٢)

(١) د . أحمد شلى : اليهودية ٣٢٤ .

(٢) السابق : ٣٢٤ .

ولعل نظرة على القَسَم الذى يقسمه الماسونى تؤكد لنا أن هذه الأهداف الظاهرة التى تحدث عنها مكاربيوس شاهين لا وجود لها . ونص القسم هو :
« أقسم بمهندس الكون الأعظم أننى لا أفشى أسرار الماسونية ولا علامات وأقوالها ولا تعاليمها وعاداتها . وأن أصونها مكتومة فى صدرى إلى الأبد .

أقسم بمهندس الكون الأعظم ألا أخون عهد الجمعية وأسرارها لا بالإشارة ولا بالكلام ولا بالحروف . وألا أكتب منها شيئاً ولا أنشره بالطبع أو بالحفر أو بالتصوير وأرضى إن حثتُ فى قسى أن تحرق شفتائى بحديد ملتهب وأن تقطع يداى ويخز عنى . وتعلق جثتى فى محفل ماسونى ليراها طالب آخر ليتعظ بها . ثم تحرق جثتى ويذر رمادها فى الهواء . لتلا يبق أثر من جنايتى »^(١)

وإن خطر الصهيونية لفادح يدركه المتأمل لأعمالها ولهذا القسم الذى يقسمونه ولقد أدرك هذا الخطر جميع العارفين لأهداف الماسونية . حتى إن بعض المجتمعات قد قررت إلغاء المحافل الماسونية فيها . وقد أدرك بعض المسيحيين خطر الماسونية على الدين المسيحى فصدر المرسوم البابوى ذو الرقم ٨٦٤ بخذر الكاثوليك من الاشتراك فى الهيئات السرية والمشتبه فيها على الإطلاق .

وأما أندية « الروتارى » فهى أنشطة علنية تؤدي مهماتها أو بعض هذه المهمات تحت ستار الإخاء الإنسانى .

وهى أندية منبثة فى أغلب العواصم والمدن الكبرى وأهدافها الظاهرية كما يقولون هى : النظر فى الشؤون الاجتماعية والاقتصادية بإلقاء المحاضرات

(١) السابق : ٣٢٥ - ٣٢٦ تقلا عن : محمد على الزعنى : الماسونية منشة ملك إسرائيل .

والخطب . والعمل على التقارب بين أتباع الأديان المختلفة والبلدان
المعدة .

أما الغرض الحقيقي فهو أن يمتزج اليهود بالشعوب الأخرى باسم الإخاء
والود . ثم يحاول اليهود عن هذا الطريق أن يصلوا إلى جميع المعلومات
التي تساعدهم في تحقيق أغراضهم اقتصادية كانت أو صناعية أو سياسية .
ولقد فطن الفاتيكان أيضاً إلى خطر هذه الأندية «المسماة الروتارى»
فصدر مرسوم من المجلس الأعلى المقدس في العشرين من ديسمبر سنة
١٩٥٠ م قرر فيه الكرادلة ما يلي :

«دفاعاً عن العقيدة وعن الفضيلة تقرر عدم السماح لرجال الدين
بالانتساب إلى الهيئة المسماة «بنادى الروتارى» . وعدم الاشتراك في
اجتماعاتها . وأن غير رجال الدين يطالبون بمراجعة المرسوم ذى الرقم ٦٨٤
الخاص بالجمعيات السرية والمشتبه فيها» (١)

فالماسونية وأندية الروتارى مراكز خطر محقق دائماً بالعالم الإسلامى .
وبعد : فهذه صورة مجملة للمراكز والركائز التي ينطلق منها الغزو
الفكرى والتيارات المعادية للإسلام والمسلمين . أردت من رصدها والتعريف
بها أن أدل عليها وأعرف المسلمين بمكان الخطر المحيط بهم وبدينهم لعل الله
أن يهدى بكلماتي هذه من يستطيع أن يرد عن هذا الدين كيد الكائدين
وحقن الحاقدين . إننى بهذا البحث إن وصلت إلى هذا أعد نفسي من
الموفقين

(١) السابق ٣٢٨ .

خاتمة

كما افتتحنا هذا البحث بحمده سبحانه والصلاة والسلام على محمد عبده ورسوله نختتم كلامنا فيه بشكر الله سبحانه والثناء عليه بما هو أهله .
والصلاة والسلام على محمد عبده ورسوله .

وقد حاولت في مدخل هذا البحث أن أعرف بالغزو الفكري وأن أحدد مفهومه وأبعاده التاريخية .

وفي الباب الأول حاولت أن أرصد مظاهر هذا الغزو وتياراته . وأن أكشف عن حملات التشويه التي وجهها أعداء الإسلام وعلى رأسهم المستشرقون والمبشرون وأدعياء العلم من هنا وهناك إلى القرآن الكريم والسنة النبوية وصاحبها عليه الصلاة والسلام . وإلى تاريخ المسلمين ونظام الحياة الإسلامي والتراث الإسلامي بعامة .

وفي الباب الثاني جعلت جهدي أن أنتج نوعاً آخر من الحملات الموجهة ضد الإسلام هو حملات التغريب أي تحويل المسلمين عن إسلامهم وتاريخهم إلى الغرب وحضارته . تلك الحملات التي استهدفت التعليم والثقافة بالدرجة الأولى . وتناولت تغريب الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية للمجتمعات الإسلامية كلها . ودلت - ما وسعني البحث والتحري - على الأصابع والقوى التي تحرك هذه الحملات وترسم لها خطوطها ومخططاتها وأوضحت أن الهدف من هذا التغريب هو صرف المسلمين عن إسلامهم وإلقاؤهم أتباعاً خاضعين على أعتاب الحضارة الغربية المعادية .

وفي الباب الثالث : رصدت ركائز هذا الغزو الفكري وأدواته ووسائله . ووجدت من أبرزها الصهيونية أو اليهودية . والتبشير والاستعمار .

والنظريات والمبادئ المعادية للإسلام مثل : الديمقراطية والشيوعية والاشتراكية . والقوميات بأنواعها العديدة . والفلسفات الهدامة كالوجودية والفوضوية والقاديانية أو الأحمدية والباية والبهائية والماسونية والروتاري وغيرها . ودلت كذلك على الأصابع التي تحرك هذه المراكز وعلى العقول التي تخطط وتدبر لها . كيداً للإسلام وحقداً على المسلمين .

وقد أعانني الله وأمدني من الأسباب بما مكنتني من إنجاز البحث على هذا النحو الذي عرضت . فإن كنت قد وفقت إلى ما أردت فذلك فضل من الله أولانيه يستوجب مني أجزل الشكر وأعظم الثناء . وإن كنت جانببت الصواب في بعض ما قلت . فأنا أعترف بأنني المخطئ المقصر . وبأن عملي يحتاج إلى إعادة نظر وإحالة فكر . وبأنني محتاج أبداً إلى مغفرة الله وتجاوزه عن غفلي أو تقصيري . وحسبي أنني سددت وقاربت وقصدت وجه الله . ورجوت نفع المسلمين .

وما ادعيت - ولن أفعل - أن ما كتبت عن الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام هو العمل الكامل - لأن الكمال لله وحده - ولا هو التحليل الأخير - كما يقولون - وإنما كل ما أرجوه أن يكون ما كتبت في هذا الموضوع حافزاً لبعض إخواني على أن يزيدوا البحث عمقاً ويولوه اهتماماً أكبر . لعلهم يصلون بذلك إلى ما لم أصل إليه .

والله من وراء القصد وهو الهادي إلى سواء السبيل .

ونحمده في الأولى والآخرة . بل آخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ..

د . علي عبد الحليم محمود

كلية اللغة العربية

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

الرياض

المفردات

الموضوع	رقم الصفحة
افتتاح	٥
أضواء على مفهوم الغزو الفكري	٩
الأبعاد التاريخية للغزو الفكري ضد الإسلام	١٥

الباب الأول

مظاهر الغزو الفكري وتياراته

٣١	الفصل الأول : حملات التشويه الموجهة ضد الإسلام
٣٥	١ - محاولة تشويه القرآن الكريم
٤٧	٢ - محاولة تشويه السنة النبوية
٥٥	٣ - محاولة تشويه شخص الرسول صلى الله عليه وسلم
٦٣	٤ - محاولة تشويه التاريخ الاسلامي
٧٧	٥ - محاولة تشويه نظام الحياة الاسلامية
٩٥	٦ - محاولة تشويه التراث الاسلامي

١٢١	الفصل الثاني : حملات التغريب الموجهة ضد الاسلام
١٢٧	١ - تغريب التعليم والثقافة
١٤١	٢ - تغريب الحياة الاجتماعية

الباب الثاني

ركائز الغزو الفكري ومطلقاته وأدواته

١٥٥	الفصل الأول : الركائز
-----	-----------------------

- ١٥٧ ١ - الصهيونية أو اليهودية
٦١ ٢ - التبشير بالمسيحية بين المسلمين
٣ - الاستعمار المتحالف مع الصهيونية
١٦٧ والتبشير والاستشراق ضد الإسلام والمسلمين

- ١٧٣ **الفصل الثاني المنطلقات**
١٧٥ النظريات والمبادئ المعادية للإسلام
١٧٧ ١ - الديمقراطية
١٧٩ ٢ - الشيوعية والاشتراكية
١٨١ ٣ - القوميات بأنواعها العديدة

- ١٨٥ **الفصل الثالث الأدوات**
١٨٧ الفلسفات الهدامة
١٨٩ ١ - الوجودية
١٩٣ ٢ - الفوضوية
١٩٥ ٣ - القاديانية
١٩٩ ٤ - البائية والبهائية
٢٠١ ٥ - الماسونية والروتاري
٢٠٥ خاتمة

رقم الإيداع ٧٩/٢٣٢٨
التقديم الدولي ٧ - ٥٠ - ٧٠٥٩ - ٩٧٧ ISBN

دار ابن الأثير للطباعة والنشر
جامعة الموصل